دروس التـــاريـخ

ترجمة و تقديم : علي شلش



ويـل واريـل ديـورانـت

دُروس التاريخ

الطبعــــــة الأولى ١٩٩٣

دار سـعـاد الصبـــاح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت
القاهرة - ص.ب : ١٣ المقطم
٢٦٧ دقي
تليفون : ٣٤٩١٧٢٧
٣٤٩٧٧٧٩
٧٠٩٥٨٣
فاكس : ٧٠٩٥٦٣
٥٠٦١٠٣٠

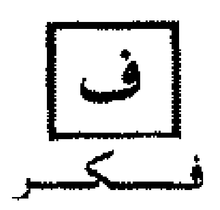
رقم الإيداع : ١٩٩٣/٥٥٨٥
I.S.B.N. 977—274—016—8

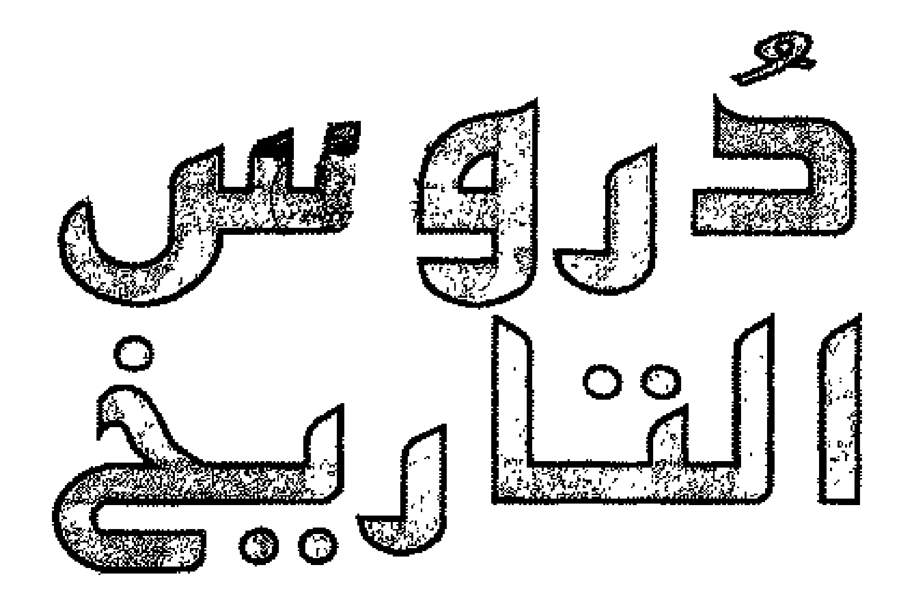
الاشراف الفني : حلمي التوني

اهداءات ١٩٩٩

دار الجميل

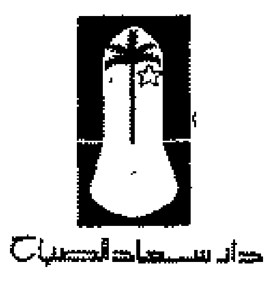
القاهرة





ول واريل ديورانت

ترجمة وتقديم : على شلش



المحتويات

الموضوع	الصفحة

مقدمة المترجم

لم أكن سمعت عن هذا الكتاب من قبل حتى عثرت عليه مصادفة أثناء زيارة لأمريكا عام ١٩٩١ . وتصفحته فشاقني موضوعه. ثم قرأته فتحركت بداخلي رغبة جادة في ترجمته.

ولعل عدم سماعي به يرجع إلى صغر حجمه بالقياس إلى المجلدات الكبيرة التي أنتجها مؤلفه، ولكن ظهوره عام ١٩٦٨ كان في الغالب سبب جهلي به، فمنذ عام ١٩٦٧ استعر عداؤنا لأمريكا، ولم نعد على صلة وثيقة ـ كما كنا من قبل ـ بما تخرجه المطابع هناك. وكان لا بد أن تمر سنوات قبل أن أتوصل إليه، أو تقع عيناي مصادفة عليه كما حدث.

شاقني بعنوانه أولاً ثم بمؤلفه، أو مؤلفيه إذا شئنا المكتوب على غلافه.

أما عنوانه «دروس التاريخ» فغني عن التعريف. وقد فضلته عند

الترجمة على عنوان آخر يذكرنا بعناوين مؤرخينا القدامى، وهو «عبر التاريخ» ولكن العبر من الدروس، والدروس أشمل وأعم. وأما مؤلفاه فهما وِلْ ديورانت وزوجته إِريل ديورانت. وقد عرفناهما منذ وقت مبكر، عندما ترجم محمد بدران وآخرون معظم أجزاء كتابهما الضخم «قصة الحضارة» وإن كان اسم الزوجة لم يظهر إلا ابتداء من الجزء السابع فى الأصل الإنجليزى الذى بلغ ١١ جزءا. ومع ذلك فالرجل نفسه صاحب نصيب الأسد فيه، وفى غيره، وصاحب الشهرة العريضة أيضا التى جاءته مبكرة عام ١٩٢٦ . ففى ذلك العام نشر كتابا بعنوان «قصة الفلسفة» وفيه جمع محاضراته التى كان يلقيها بأحد معاهد تعليم الكبار، بعد أن كتبها بأسلوب مبسط، ونثر فيها الكثير من النوادر والطرائف. وعلى غير ما يتوقع نجح الكتاب فى السوق، وصار من أكثر الكتب رواجا، حتى بيع منه نحو مليونين ونصف المليون من النسخ طوال العقود الثلاثة التالية لظهوره. ومن حصيلة مبيعاته تحرر مؤلفه من ربقة الوظائف وعناء التدريس، وتفرغ للكتابة والتأليف حتى وفاته عن ٩٦ سنة عام ١٩٨١.

من هو إذن ول ديورانت الذى عرفنا له «قصة الحضارة»، و«قصة الفلسفة» الذى ترجمه أحمد الشيبانى، و«مباهج الفلسفة» الذى ترجمه أحمد فؤاد الأهوانى، ولكننا لم نعرف شيئا عن حياته

وأعماله الأخرى؟.

ولد ديورانت بولاية ماساتشوستس، لأب من أصل فرنسى كندى، عام ١٨٨٥. وكان أحد ١١ طفلا لأبويه لم يستمر منهم سوى أربعة. وتلقى تعليما كاثوليكيا يؤهله لكى يصبح قسا كما أراد أبوه، ولكنه سرعان ما تحول إلى التعليم المدنى، ونال البكالوريوس فى الآداب عام ١٩٠٧، ثم نال الماجستير فى العام التالى. وعمل فترة بالصحافة، ثم تركها إلى التدريس، فعلّم اللاتينية والفرنسية بالكلية التى تخرج فيها حتى عام ١٩١١. وبعدها اكتشف الفيلسوف الهولندى باروخ سبينوزا (١٦٣٢ ـ ٧٧) فشككه فى الدين، وجعله يشعر ـ على حد قوله ـ بضرورة أن يكون صادقا مع نفسه من الناحية الفكرية. ثم انضم لبعض حلقات الشباب المتطرف فى نيويورك. وعاد إلى التدريس بمدارس الفرير الفرنسية وتعليم الكبار، حيث توثقت صلته باحدى تلميذاته، وهى أدا كاوفمان، فتزوجها عام ١٩١٣، واتخذت الاسم القلمى الذى عرفت به بعد ذلك. وفى عام ١٩١٧ نال الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة كولومبيا.

فى عام ١٩٢٧ طلق ديورانت التدريس وتعليم الفلسفة، بعد نجاح كتابه السابق الذى خرج من محاضراته. ومع أنه نشر قبله رسالته للدكتوراه بعنوان «الفلسفة والمشكلة الاجتماعية» عام

١٩١٧ ، فقد كان كتاب «قصة الفلسفة» بيضة من الذهب كما أشرنا. وقد شجعه على التأليف والسفر معا. ففى عام صدوره نشر كتابا آخر بعنوان «قصة عقل واحد وحقبة واحدة» وهو سيرة ذاتية. وفى عام ١٩٢٩ نشر كتابا آخر بعنوان «قصور الفلسفة» الذى استمر فيه على نهجه فى تيسير الفلسفة للقارئ العادى. وفى ذات العام قام برحلة إلى الهند، خرج منها بكتاب عنوانه «قضية الهند» وفيه رد جميع مشكلاتها إلى الاستعمار الإنجليزى، وحاول أن يثير التعاطف الأمريكى مع الوطنية الهندية، مبديا إعجابه بغاندى. وفى عام ١٩٣١ نشر كتابين، أحدهما مقالات فى الفلسفة والشعر والرحلات بعنوان «مغامرات فى العبقرية» والآخر فى الإصلاح الاجتماعى بعنوان «برنامج للأمريكيين» وفى العام التالى نشر كتاباً بعنوان «فى معنى الحياة» استمد مادته من مراسلاته وعلاقته بنحو مائة شخصية مرموقة، مثل غاندى وأندريه موروا. وفى العام ذاته قام برحلة إلى الاتحاد السوفييتى، وخرج منها بكتاب صدر فى العام التالى بعنوان «مأساة روسيا» وفيه تعاطف مع الشعب الروسى، ولكنه حكم على بلاده بأنها «سجن كبير» متحلل فى نظامه وأخلاقه ونظافته وحريته.

ولكن هذه الكتب جميعا لم تحقق نجاحاً يقاس بما حققه

كتاب «قصة الفلسفة» الذى شجعه على الدخول فى مشروع كبير مماثل استغرق عمره وجهده بعدها. وكان المشروع يتلخص فى كتابة قصة الحضارة بأسلوب شائق بسيط، بعيد عن تكلف المتخصصين. وكانت الفكرة قد راودته عام ١٩١٢ عندما كان فى أوج شبابه. ففى ذلك العام قام برحلة إلى الشرق، وزار سوريا، ونزل دمشق. وهناك مرض، ولازم الفراش. وخطر بباله أثناء مرضه أن المؤرخ الإنجليزى هنرى توماس بكل (١٨٢١ ـ ٦٢) زار دمشق منذ نصف قرن، ومرض، ثم مات دون أن يشرع فى مشروعه لكتابة تاريخ الحضارة. وهكذا قرر ديورانت فى دمشق أن ينفذ ما عجز عنه بكل الذى ترك كتابا ضخما عن «تاريخ الحضارة فى انجلترا».

فى عام ١٩٣٥ كان ديورانت قد نجح فى إنجاز الجزء الأول من مشروعه، ونجح أيضا فى تغيير نمط حياته كلية. فقد هجر أقصى شرق الولايات إلى أقصى غربها، وحط رحاله بضواحى مدينة لوس أنجيليس فى ولاية كاليفورنيا. ومع أنه قام بالتعليم فى جامعتها لفترة قصيرة، فقد تفرغ تماما للقراءة والكتابة، وعاش عيشة زاهدة، بعيداً عن صخب المجتمع، كما صورته صحف العصر. وراح يعمل مع زوجته بجد واجتهاد، بعد أن أنجب منها بنتاً، وتبنيا ولداً. وكانت

ساعات عمله تستغرق أيام الأسبوع السبعة، فيقرأ نحو ٥٠٠٠ كتاب لكى يخرج بجزء واحد من «قصة الحضارة» ويكتب ألف كلمة فى اليوم، بمساعدة زوجته وابنته أيضا، ولا يقرب التدخين أو الخمر، ولا يأكل سوى النبات، ولا يهتم بتحيزات السياسة، ولا يمارس متعة سوى المشى كل يوم مسافة ميل كامل. وإذا تكلم فصوته خفيض، وعيناه الرماديتان تعزفان مع شعره الأبيض نغمة الهدوء والسكينة. ومع ذلك كان عضوا بالمعهد القومى للفنون والآداب بعاصمة الولايات، واشنطن، وهو أعلى هيئة ثقافية حكومية فى البلاد. وكان قد فاز عام ١٩٣٠ بدكتوراه فخرية من جامعة سيراكيوز بولاية نيويورك. ثم فاز عام ١٩٦٨ بجائزة بوليتزر، أكبر جائزة أمريكية للأدب والصحافة، عن الجزء العاشر من «قصة الحضارة» وأصدر فى العام ذاته كتابه الصغير هذا «دروس التاريخ». وفى عام ١٩٧٠ نشر كتابا بعنوان «تفسيرات الحياة» وهو دراسة مسحية مبسطة للأدب المعاصر. ثم أصدر آخر كتبه عام ١٩٧٧ بالاشتراك مع زوجته بعنوان «سيرة ذاتية ثنائية» رويا فيها قصة حياتهما وأعمالهما ونشاطهما. وعندما مات عام ١٩٨١ شعرت شريكته بفراغ كبير، وماتت بعده بخمسة أشهر.

ولا شك أن «قصة الحضارة» هى أهم كتبه وآثاره. وتتألف ـ

كما ذكرنا ــ من ١١ مجلدا ضخما تحمل العناوين التالية :

١ ــ تراثنا الشرقى (١٩٣٥).

٢ ــ حياة اليونان (١٩٣٩).

٣ ــ قيصر والمسيح (١٩٤٤).

٤ ــ عصر الإيمان (١٩٥٠).

٥ ــ عصر النهضة (١٩٥٣).

٦ ــ عصر الإصلاح الدينى (١٩٥٧).

٧ ــ عصر العقل يبدأ (١٩٦١).

٨ ــ عصر لويس ١٤ (١٩٦٣).

٩ ــ عصر فولتير (١٩٦٥).

١٠ ــ روسو والثورة (١٩٦٧).

١١ ــ عصر نابليون (١٩٧٩).

من الواضح فى هذا التقسيم التاريخى أنه بدأ بحضارات الشرق فى مصر والعراق والهند والصين واليابان. وتتبع استمرار عملية التحضر، وانتقالها، ومساهمات الأديان والفلسفات، واهتم بحركات المد السياسى والاقتصادى، وصور تطور الفنون والعلوم والعادات، وخلص إلى بيان الأسس التى يقوم عليها المجتمع الغربى الحديث والمعاصر. كما خلص إلى أن الحضارة عملية تاريخية

منفتحة للإبداع، تظهر فى مكان وزمان معينين، حتى إذا أكملت دورتها، ودب فيها الوهن، انتقلت إلى مكان آخر فى زمان آخر، وهكذا، دون توقف. فقصتها مستمرة برغم التقطع العابر.

ومنذ صدور الجزء الأول من هذه القصة تعرض ديورانت للنقد من جانب المتخصصين. فقد وصف أحدهم هذا الجزء بأنه «عمل صحفى علمى جيد» ولكنه يحمل نغمة شبنجلرية (نسبة إلى مؤرخ الحضارة الألمانى المتشائم شبنجلر). ولما صدر الجزء الثانى عن حياة اليونان منذ بدايتها، وبدايات الحضارة فى الشرق الأدنى، عام ١٩٣٩، أثنى عليه النقاد، ثم خالفوه فى بعض أحكامه، وهكذا حتى صدور الجزء السابع من القصة. فكان الثناء ينصرف إلى الأسلوب والتشويق وطريقة العرض، وكان الانتقاد يتركز على بعض الأحكام التعميمية، والتواريخ غير الدقيقة، والمعلومات غير الكافية، والرجوع أحيانا إلى مصادر ثانوية. أما بعد الجزء السابع، الذى شاركته فيه زوجته لأول مرة، فقد زاد الثناء على المؤاخذة. ثم احتد النقد عند ظهور الجزء الثامن. ومنه على سبيل المثال ما كتبه المؤرخ الإنجليزى ج. هـ. بلَمْ J.H. Plumb الأستاذ بجامعة كيمبريدج. فقد أشار إلى عدد من الأخطاء فى الوقائع، ونقص الحس التاريخى بالحقائق والواقع.

لم يرد ديورانت على الثناء إلاّ بالشكر بالطبع، ولكنه أشار أكثر من مرة إلى أن احتمال الخطأ يزداد باتساع مجال الموضوع والتناول، وقال إنه من المستحيل عرض ١١٠ قرون من التاريخ دون الوقوع فى الخطأ. وهذا حق على أية حال. ولكن ناقديه جميعا أجمعوا على الاعتراف بأهمية عمله وقيمته. وعدّه البعض من رواد تقريب المعرفة للقارئ العادى. وأقبل طلاب التاريخ ودارسو الحضارات على عمله، ووجدوا فيه تيسيراً وتشويقاً لا نظير لهما فى أعمال الأكاديميين.

وقد سئل هو نفسه ذات مرة أن يصف نفسه وعمله، فقال لسائله إنه لا يعد نفسه مفكرا أو فيلسوفا، وإنما يعتقد أنه «عاشق لعشاق الحكمة» وسئل أيضا عن تشاؤمه فقال: «إن الوضع الدولى كله فاسد. هكذا كان، وهكذا سيظل، ولا أجد سببا يدعو إلى التغير» وسئل أخيراً أن يلخص الحضارة فقال : «هى نهر ذو ضفتين، يمتلئ أحياناً بدماء الناس الذين يقتلون ويسرقون ويصيحون ويفعلون أشياء يسجلها المؤرخون عادة. ولكننا نجد على الضفتين فى الوقت ذاته أناساً لا يحس بهم أحد وهم يبنون البيوت، ويمارسون الحب والجنس، ويربون الأطفال، ويتغنون بالأغانى، وينظمون الشعر، بل ينحتون التماثيل. وقصة الحضارة هى قصة ما حدث

على الضفتين. ولكن المؤرخين متشائمون، لأنهم يتجاهلون الضفاف ويتعلقون بالنهر».

هذا التشاؤم الذى يميز المؤرخين فى رأى ديورانت يميزه هو نفسه هنا فى «دروس التاريخ» ومع ذلك لا يكف عن تنحيته كلما تعلق بالضفاف وتجاهل النهر. ومن الواضح أنه ألف ـ مع زوجته ـ هذا الكتاب الصغير قبيل الانتهاء من تأليف قصة الحضارة. ولأن القصة ذاتها مرتبطة بالتاريخ من الألف إلى الياء، فقد صار التاريخ هنا موضوعاً ومرجعا على السواء.

ولا شك أنه من الصعب تناول تاريخ البشرية، واستخلاص أهم دروسه، فى حيز محدود من الصفحات، حتى لو كان الذى يتناوله من طراز ديورانت فى قدرته الفائقة على التبسيط والتيسير، وموهبته الكبيرة فى الشرح والتلخيص. وهذا ما يظهر هنا بوضوح، لأن متابعة هذا الحيز المحدود من الصفحات تقتضى قراءة الأجزاء الأحد عشر من «قصة الحضارة» أو الإلمام ـ على الأقل ـ بتاريخ البشرية منذ بدأ تسجيله. وسوف نلاحظ أن ديورانت يخاطب القارئ الغربى، ولكنه لا يفرق هنا بين قارئ عارف وقارئ يريد أن يعرف. فما أكثر الإشارات إلى أحداث وأسماء أسهمت فى تشكيل التاريخ الإنسانى. وما أكثر المواطن التى تقتضى شرحا وتذييلا للمتن.

يقع الكتاب فى ١٣ فصلاً متفاوتة الطول، ولكنها قصيرة ومركزة بشكل عام.

ففى الفصل الأول يعرض المؤلفان الكثير من التساؤلات التى تنتاب المؤرخ حين يقترب من غايته. ويؤكدان أن كتابة التاريخ لا يمكن أن تكون علما، وإن كانت تحتاج إلى كثير من العلوم، مثل الجيولوجيا والفلك والأحياء والأجناس والنفس والأخلاق والاقتصاد والسياسة. ثم ينتقلان فى الفصل التالى إلى مناقشة صلة التاريخ بالأرض أو الجغرافيا. وعندهما أن التاريخ هو حوادث الماضى أو سجله، وأن أول درس يعلمه للناس هو التواضع، وأن الجغرافيا هى الرحم الذى يغذيه والوطن الذى يربيه. ولكن سلطان العوامل الجغرافية يقل كلما نمت التكنولوجيا وتطورت. ولذلك يكون الإنسان ـ صانع التكنولوجيا ـ صانع الحضارة أيضا. فالأرض لا تصنع الحضارة، مهما كان تأثير البيئة والمناخ على الصانع والمصنوع. ومع ذلك فالتاريخ ـ كما يؤكدان فى الفصل الثالث ـ جزء من البيولوجيا أو علم الأحياء، أى أنه يتأثر بقوانين هذا العلم التى تحدد الدروس المستفادة منه أيضا.

وأول هذه الدروس أن الحياة منافسة عامة، بين الأفراد ثم بين الجماعات والدول. وثانى الدروس أن الحياة عملية انتخاب واختيار.

وثالثها أن الحياة يجب أن تتوالد وتتكاثر بالإنجاب. ولكن إذا زاد البشر على كمية الطعام المتاح بدأت المتاعب. ولذلك يجب ضبط النسل، مع أنه ضار ببعض الأمم أحيانا.

من الواضح أن المؤلفين متأثران إلى حد ما ــ هنا ــ بأفكار دارون وأتباعه. ومع ذلك فهما لا يتقبلان نظرية الأجناس التى تطورت على يدى الداروينية وأتباعها. ففى الفصل الرابع ينتهيان إلى أن هذه النظرية ضعيفة، وأن التاريخ لا يميز بين ألوان البشر، وأن فى مقدوره إنشاء الحضارات فى أية بيئة مواتية، وفى ظل أية بشرة، وأن الثقافات القديمة كانت نتاجاً للفرص الجغرافية والتطور الاقتصادى والسياسى لا للتكوين العرقى. ولاحظ المؤلفان أن النصف الجنوبى من الكرة الأرضية يبدع الحضارات، ولكن النصف الشمالى يغزوها، ويحطمها، ويستعير منها، وينشرها. وهذه إحدى خلاصات التاريخ فى رأيهما. أما دور الجنس أو العرق فتمهيدى أكثر مما هو إبداعى. وليس الجنس ــ بهذا المعنى ــ هو صانع الحضارة، ولكن الحضارة هى صانعة الناس والشعوب، وهى عملية تقوم على التعاون، أسهمت فيها جميع الشعوب تقريبا. ولذلك فهى تراث الجميع، والدَّيْن الذى يدين به الجميع أيضا.

وينتقل المؤلفان فى الفصل التالى إلى مناقشة صلة الشخصية بالتاريخ، شخصية الإنسان فردا ثم جماعة. فالمجتمع ـ كما يتصورانه ـ لا يتأسس على المثل العليا، وإنما على طبيعة الإنسان، لأن دستور الإنسان يعيد صياغة دساتير الدول. وما هذا الدستور إلا الطبيعة البشرية. وما هذه الطبيعة سوى الميول والمشاعر الأساسية عند البشر. ولذلك يطرح المؤلفان جدولاً للشخصية الإنسانية، يجمع بين الغرائز الإيجابية وعددها ست، مقابل الغرائز السلبية وعددها ست أيضا. وكل غريزة من هذه الغرائز الاثنتى عشرة تولّد العادات. ومن مجموعها تتألف طبيعة الإنسان. ولنأخذ مثلا غريزة الابتكار التى تقابلها غريزة التقليد، فالأولى إيجابية والأخرى سلبية، ولكن الاثنتين تتفاعلان وتتعاونان برغم تضادهما. والتاريخ فى عمومه يتشكل من الصراع الدائر بين الأقليات. وفى هذا الصراع نجد الأغلبية تصفق للمنتصر، وتقدم المادة البشرية للتجربة الاجتماعية. والعقل قوة فعالة فى التاريخ، إيجابا وسلبا، أى أنه قادر على البناء والتدمير فى آن واحد. والمحافظ والمتطرف ـ معا ـ مفيدان، على الرغم من التضاد والعداء بينهما.

وفى الفصل السادس يناقش المؤلفان صلة التاريخ بالأخلاق، فيعرفان الأخلاق بأنها القواعد التى يستخدمها المجتمع لحض أفراده

وجمعياته على السلوك المنسجم مع نظامه وأمنه ونموه. ولكنها خاضعة للتغير المستمر، والاختلاف، مكانا وزمانا. ثم يقارنان عصرنا بالعصور السالفة، من حيث الأخلاق، فيجدان أن عصرنا ليس أسوأ من سابقيه في الانحلال، وأن هذا الانحلال ليس نذير فساد، لأن الحضارات تتحلل على مهل. وينقلهما موضوع الأخلاق فى الفصل التالى إلى موضوع الدين وصلته بالتاريخ، فيجدان أنه لا غنى عن الدين فى كل مصر وعصر، لأنه يقدم للبشر سلوى وعزاء أثمن من أى عون طبعي. وإذا كان الخوف هو الذى خلق فكرة الآلهة عند البشر، فقد تطورت الفكرة حتى وصلت إلى الأديان المكتوبة. ومع أن الكنيسة انحرفت على مدار العصور فقد أدت خدمات جليلة للبشر. والدرس الذى يقدمه التاريخ فى هذا الخصوص هو أن الدين متعدد الأرواح، متعود على البعث والنشور. ومع ذلك فالتزمت الدينى والوثنية يتعاقبان، واحداً وراء الآخر، فى التاريخ «وإذا قدر للنظام الاشتراكى أن يفشل فى جهوده للقضاء على الفقر فى أوساط الجماهير لفقد هذا الدين الجديد (أي الاشتراكية) حماسته وقدرته على التأثير، ولتغاضت الدولة عن عودة المعتقدات الخارقة كمعونة فى تهدئة السخط» وهذا ما حدث على أية حال فى المعسكر السوفييتى الأوروبى الاشتراكى بعد عقدين من الزمان. ومعنى هذا ـ كما قال ديورانت فى كتابه

القديم «قصور الفسلفة» أنه «ما دام الفقر موجودا ستوجد آلهة».

وعند هذا الحد يصل المؤلفان إلى أهم فصول الكتاب وأخطرها. ففي الفصول الستة الباقية يعالجان صلة التاريخ بالاقتصاد والاشتراكية والحكم والحرب، وتعرض الحضارات للتطور والتحلل، ومدى صحة التقدم.

التاريخ ــ كما يقول ماركس ــ هو الاقتصاد أثناء نشاطه وعمله. والتفسير الاقتصادى للتاريخ ليس غبيا أو عاطلاً عن الفائدة، فهو «يضيء الكثير من زوايا التاريخ» كما يقول مؤلفا الكتاب، ولكن ماركس بخس الدور الذى تؤديه الحوافز غير الاقتصادية فى سلوك الجماهير، مثل الحمية الدينية والحماسة الوطنية. وإذا كان كل نظام اقتصادى مضطراً ــ إن آجلا أو عاجلا ــ إلى الاعتماد على شكل من أشكال حافز الربح، حتى يحرك فى أفراده وجماعاته طاقة الإنتاج، فقد أثبتت بدائل هذا الحافز، مثل الرق أو رقابة الشرطة أو الحماسة الأيديولوجية، أنها غير منتجة أو غالية أو مؤقتة أكثر من اللازم. وينتهى المؤلفان إلى أن تركيز الثروة شيء طبعى وحتمى، وأن التاريخ الاقتصادى كله أشبه بنبضات القلب البطيئة للكائن الاجتماعى، فهو انقباض وانبساط هائلان فى تركز الثروة وإعادة توزيعها بالإكراه.

وإذا كان الرأسمالى أدى خدمات جليلة فى التاريخ فهو لم يعفه من الاحتجاجات والثورات على المظالم، والتلاعب بالأسعار، والاحتيال التجارى، والثراء الطائش. وهذه كلها أمور قديمة شهدتها الحضارات الماضية، وأدت إلى ظهور تجارب اشتراكية منذ عام ٢١٠٠ ق. م، حين تدخلت السلطات بمملكة سومر فى التجارة والزراعة والصناعة. وحتى حين شرعت روسيا فى الأخذ بالاشتراكية فى هذا القرن لم تستطع تجنب الدوافع الفردية، فأعادت لها مكانتها، مثلما لجأت رأسمالية الغرب إلى تحديد التملك الفردى عن طريق التشريع شبه الاشتراكى، وإعادة توزيع الثروة. وهناك ـ حسب منطق هيجل كما يرى المؤلفان ـ لقاء بين النظامين: الاشتراكى والرأسمالى، يتمثل فى ازدياد دور الحكومات الغربية فى الاقتصاد وتناقص دور القطاع الخاص. ولكن هل يستمر هذا الازدياد والتناقص فى ظل انهيار الاشتراكية العالمية الذى لم يشهده ديورانت وزوجته؟ لقد اضطر النظامان ـ كما لاحظ المؤلفـان ـ إلى التيسير فى الخدمات والحرية والمساواة والاستفادة منها، نتيجة الخوف المتبادل، حتى صار «الشرق غربا والغرب شرقا، وسرعان ما سيلتقيان» على حد تعبيرهما. وها هو اللقاء قد جرى، فماذا تكون الخطوة التالية؟

ولا شك أن الحكومات ضرورية، وأن تركيز السلطات مثمر كما يقول المؤلفان. فوظيفة الحكومة هى إقرار النظام على الأقل. ولكن هل النظام الملكى أكثر أنواع الحكم طبعية، وأقدمها، وأغلبها، وأكثرها دواما؟ هذا ما يظهره التاريخ. أما النظام الديموقراطى فكان أقرب إلى الفصول الإضافية، أو الفواصل، المحمومة. وإذا كان سجل الملكية معتدلاً عموما، وكانت الأرستوقراطية دار حضانة لفن الحكم ومستودعا للثقافة وأداة لها فإن خدماتهما لم تنقذهما حين احتكرتا الامتياز والسلطة، واضطهدتا الشعوب، وأخرتا نمو الأمم، مما أدى إلى الثورات واتحاد الأغنياء الجدد والفقراء ضدهما. ومع ذلك فالآثار التى تحدثها الثورات يمكن تحقيقها بدون حاجة إليها، من خلال الدفع التدريجى للتطورات الاقتصادية. ولا غنى ـ فى الوقت نفسه ـ عن حكومات الأقلية مثلما لا غنى عن تركيز الثروة.

«إذا كانت سلامة عقل الفرد تكمن فى استمرار ذكرياته فسلامة عقل الجماعة تكمن فى استمرار تقاليدها. وفى أى الحالتين نجد أن أى قطع فى السلسلة يؤدى إلى رد فعل عصابى» كما يقول المؤلفان، وهو ردٌ له صور كثيرة مثل حوادث الشغب والمذابح والتخريب. وهنا يعود المؤلفان إلى المثالية والبلاغة فيعلنان : «ليست الثورة الحقيقية الوحيدة إلاّ تنوير العقل، وتحسين الشخصية.

وليس التحرير الحقيقى الوحيد إلاّ تحرير الفرد. وليس الثوريون الحقيقيون الوحيدون إلاّ الفلاسفة والقديسين، وهما يعتقدان أن الديموقراطية التى شهدتها أثينا قديما فشلت بسبب نظام الرق الذى جعل معظم أهل أثينا من العبيد وحرمهم من التصويت والاقتراع، وكذلك بسبب فساد الذمم والحروب وضيق القاعدة الشعبية. وعكس هذه الأسباب هو سر نجاح الديموقراطية فى الولايات المتحدة كما يعتقدان أيضا. ومع ذلك فالديموقراطية أصعب أشكال الحكم، وضررها أقل، وخيرها أكبر. وليس معنى هذا أن نجاحها مكفول ومضمون. ولذلك يحذر المؤلفان من الحروب لأنها تمتص الديموقراطية، كما يحذران من شهوة الحكم بمؤسسة عسكرية، وعجز الاقتصاد عن توزيع الثروة بذات الكفاءة التى خلقها بها.

أما الحرب، تلك الظاهرة التاريخية المتواترة، فيرى المؤلفان أنها أحد ثوابت التاريخ، بل هى أبو كل شىء ابتداء من الأفكار والمخترعات إلى المؤسسات والدول. ولكنهما يعتقدان أنها ـ أيضا ـ رادع مهم، وعامل حماية، فى الوقت الذى يدعوان فيه إلى تحكيم العقل والاقتداء بالملك الهندى القديم أشوكا الذى شن حروبا كثيرة وسّع بها مملكته، ثم زهد فى الحروب والفتوح والحياة ذاتها، وصار يدعو إلى البوذية. ومع أن النظام العالمى ـ كما يقولان ـ

يقتضى انتصاراً حاسما لدولة عظمى، حتى تستطيع فرض القانون الدولى وتنفيذه، فلا مفر من التعايش السلمى مع القوى العظمى المنافسة. وها هو النظام العالمى آل دون حرب إلى قوة عظمى واحدة كما رجا المؤلفان!

غير أن الحضارة ليست كائنا أبديا. فهى تولد وتتطور ثم تتحلل وتموت. ولكن «حين تسقط حضارة أو جماعة... فما ذلك إلا لفشل زعمائها السياسيين أو الفكريين فى مواجهة تحديات التغيير» كما يعتقدان، لأن الحضارة فى حالة تغير مستمر. وإذا استسلمت للترف والفساد والفوضى وفشل الزعامة والهزائم فى الحروب كان فى ذلك نهايتها. وغالبا ما تكون الهزيمة فى الحرب ضربة قاضية. ولكن إذا اتحد غزو بربرى همجى من الخارج مع بربرية متصاعدة فى الداخل كان فى هذا الاتحاد نهاية الحضارة أيضا. فليس هناك خلود فى النهاية. ومع ذلك تبقى الحضارة فى ذاكرة البشر، ولا يذهب سوى إطارها. أما موطنها فيتغير، وتنتقل هى إلى موطن آخر، وهكذا.

وأخيرا يصل المؤلفان إلى سؤال مهم جعلاه عنوان الفصل الأخير فى الكتاب، وأخذا مادته من كتاب «قصور الفلسفة» الذى ألفه الرجل دون زوجته.

هل التقدم حقيقى؟

الجواب: نعم ولا. فنحن نضخم الوسائل، ولكننا لا نطور الأغراض. وبمقدار ما يعود علينا مــن خيــر يصيبنا الشــر. فنحــن ـ مثلاـ طورنا وسائل الانتقال ـ كما يقول المؤلفان ـ ولكننا استخدمنا هذه الوسائل فى تسهيل ارتكاب الجرائم. وهناك تقدم ـ لا شك فيه ـ فى ميدان السيطرة على البيئة، وتخلف فى القضاء على المجاعة. وهناك أيضا تقدم في العلم والتكنولوجيا، وتخلف فى ضبط ارتفاع المواليد.

وإذا كانت الحضارة لا تورّث فيجب تعلمها، واكتسابها، من جانب كل جيل. وكلما علا التراث الحضارى واتسع علا الإنسان واتسعت مداركه بذات الدرجة. وإذا كان التاريخ يعنى إبداع هذا التراث وتسجيله فالمهم هو التواصل والاستمرار «فالإنسان إذا حالفه الحظ سوف يقوم قبل موته بجمع أقصى ما يستطيع من تراثه المتحضر ونقله إلى أولاده. وسوف يشعر بالامتنان حتى آخر رمق فيه نحو هذه التركة التي لا تنضب، وهو يدرك أنها أمُنا التى تمدنا بالغذاء وحياتنا التى تدوم».

بهذه الكلمات الشاعرية المتحضرة ينتهى هذا الكتاب الصغير فى الحجم، الجاد فى أفكاره وملاحظاته وتأملاته.

والأفكار والملاحظات والتأملات التى يقدمها المؤلفان هنا تتميز بالمثالية والواقعية فى معظم الحالات، وتجد سندها فى تلك القصة الضخمة التى سبق أن سجلاها فى كتابهما الكبير المشهور. ومع ذلك فبعض الأفكار والملاحظات والتأملات الواردة هنا من النوع المثير للجدل والنقاش.. وبعضها أيضا وليد الانفعال السريع والتعبير الغامض. ومن هذه الأخيرة قول المؤلفين فى حديثهما عن مساهمة الساميين ـ يهودا وعربا ـ فى الحضارة :

«قدم اليهود الإنجيل والمسيحية لأوروبا، وقدموا لمحمد الكثير مما اشتمل عليه القرآن» .

هذه العبارة غير واضحة أولاً، وملتبسة المعنى ثانيا، ومتأثرة بكلام بعض المستشرقين المحدثين ثالثا. فلا أحد ينكر دور اليهود فى نقل الحضارة من مكان إلى آخر، أو مساهماتهم الفكرية فى الأندلس الإسلامية بصفة خاصة. ولكنهم لم يقدموا الإنجيل والمسيحية لأوروبا، لأن الذى فعل ذلك معروف، وهو القديس بطرس حوارى المسيح عليه السلام. وقد استشهد فى روما نحو عام ٦٧ . وشاركه فى ذلك القديس بولس الذى استشهد فى روما أيضا نحو عام ٦٤ . وكلاهما كان يهوديا وتنصر، وابتعد عن اليهودية كما فعل المسيح

نفسه. وهما لم يقدما الإنجيل والمسيحية لأوروبا بصفتهما يهوديين. ولم يخونا اليهود أيضا، لأنهما تحررا من اليهودية عند مناصرتهما للمسيح ورسالته. ولو ظلا يهوديين لما فعلا ذلك، ولما استشهدا في سبيل ما فعلاه.

وما كان اليهود ليقدموا شيئا لمحمد (ﷺ) لأنهم حاربوه كما هو معروف، وظل خلافهم معه قائما حتى وفاته، بالرغم من إسلام بعضهم وتمردهم على اليهودية. والقرآن مليء بذكر اليهود فى ماضيهم، وحاضرهم الذى عاصروا فيه ظهور الإسلام. فمن أين جاء التأثير إذن؟ أغلب الظن أن المؤلفين متأثران بما يقصده بعض المستشرقين من أن القرآن موضوع، وأن واضعه محمد (ﷺ) وأنه لم ينزل من عند الله عن طريق الوحي. وحتى هذا المعتقد لا يترتب عليه أن اليهود أثروا فى القرآن، بمعنى أنهم قدموا الكثير من مادته، لأننا لو افترضنا ذلك لعجزنا عن تبرير إدانة القرآن لليهود وانتقاده المستمر لسلوكهم نحو أنبيائهم. ولو قرأ المؤلفان القرآن كنص سماوى، أو أرضى، لما خرجا بهذه النتيجة، لأن كلتا القراءتين تقولان عكس ما يقولانه.

وبقى أن نشير إلى ترجمة هذا الكتاب الصغير المفيد.

من الملاحظ ـ كما أشرنا فى بداية هذا التقديم ـ أن المؤلفين يكتبان للقارئ الغربى المجهز برصيد وافر من المعرفة، ويجملان أو يوجزان ما يحتاج فهمه إلى قراءة كتابهما «قصة الحضارة» على الأقل. ومع أنهما استعانا بالهوامش والتذييلات فقد جعلاها فى آخر الكتاب، باستثناء هامشين صغيرين أورداهما فى المتن. ولكن هذا المتن ذاته حفل بأسماء أشخاص ومواضع ومصطلحات وتواريخ لا يمكن للقارئ العادى أن يحل ألغازها بسهولة. لذلك اقتضت الضرورة أن نستعين بهوامش وتذييلات كثيرة، حاولنا أن تكون مختصرة بقدر الإمكان. وكنا نحب لو اتسع لها آخر الكتاب، ولكن وظيفتها فى التيسير الفورى للنص استلزمت أن نضعها فى مواضعها بأواخر الصفحات. ومع أنها قد تقطع استرسال القارئ فى القراءة فهى ضرورية على هذا النحو. وقد ميزناها عن هوامش المؤلفين المرقمة بعلامة (*) التى استخدماها أيضا مرتين.

ونرجو أخيرا أن يجد القارئ فى هذه الترجمة شيئا من المتعة التى وجدناها عند قراءة النص فى أصله الإنجليزى.

تصدير

يحتاج هذا العمل الختامي إلى تصدير صغير. فبعد الانتهاء من تأليف كتابنا «قصة الحضارة» حتى ١٧٨٩ أعدنا قراءة المجلدات العشرة بقصد إصدار طبعة منقحة تصحح كثيرا من أخطاء الحذف أو الوقائع أو الطباعة. وأثناء قيامنا بهذه العملية رحنا ندون الأحداث والتعليقات التي من شأنها أن توضح الشئون الراهنة، واحتمالات المستقبل، وطبيعة البشر، وسلوك الدول (الإشارات الواردة هنا إلى مختلف أجزاء «قصة الحضارة» ليس المقصود بها أن تكون حججا جديرة بالاعتماد والقبول، وإنما أن تكون على سبيل الأمثلة أو الإيضاحات التي توصلنا إليها عن غير عمد) وقد حاولنا أن نرجئ النتائج التي استخلصناها إلى ما بعد الفراغ من النظرة العامة للقصة، ولكن آراءنا التي بثثناها كان لها تأثير على اختيارنا للمادة الإيضاحية. ولذا كانت النتيجة هي المحاولة التالية، وفيها نردد الكثير من الأفكار التي سبق أن عبرنا عنها، أو عبر عنها غيرنا من قبلنا.

وليس هدفنا الأصالة، وإنما الشمول. فنحن نقدم نظرة عامة على التجربة الإنسانية، لا نوعا من التجليات الشخصية.

وعلى نحو ما تكرر كثيرا فى الماضى يجب أن ننوه شاكرين بالعون والمشورة اللذين أسبغتهما علينا ابنتنا إثيل.

وِلْ وإِرِيلْ ديورانت

١ ـ ألوان من الحيرة

كلما اقتربت دراسات المؤرخ من غايتها واجه هو نفسه تحديا: ماذا عاد على الناس من دراساتك؟ ألم تجد فى عملك سوى التسلى بسرد الصعود والسقوط فى الأمم والأفكار، ورواية «القصص المحزنة عن موت الملوك» ؟ هل تعلمت شيئا عن الطبيعة البشرية أكثر مما يستطيع رجل الشارع أن يتعلمه دون أدنى جهد مثل فتح كتاب؟ هل استخلصت من التاريخ شيئا من شأنه أن يوضح أحوالنا الحاضرة، أو يرشدنا فى أحكامنا وسياساتنا، أو يحمينا من ردود المفاجأة أو تقلبات التغيير؟ هل وجدت مظاهر للاطراد والانتظام فى تسلسل حوادث الماضى بحيث تستطيع التنبؤ بأفعال البشر فى المستقبل أو مصير الدول؟ هل يمكن أن يكون «التاريخ فاقد المعنى»[1] فى النهاية، وأن لا يعلمنا شيئا، وأن يكون الماضى مجرد تجربة مملة للأخطاء التى كتب على المستقبل أن يرتكبها بحجم أكبر وعلى نطاق أوسع ؟

هكذا نشعر أحيانا. وعند ذاك يُغيرُ على عملنا حشدٌ من الشكوك. ونتساءل بادئ ذي بدء: هل نعرف ماهية الماضى حق المعرفة، وما وقع بالفعل، أم أن التاريخ «خرافة» غير «متفق عليها» تمام الاتفاق؟ إن معرفتنا بأى حادثة ماضية تتسم دائما بعدم الاكتمال، وربما بعدم الدقة، وتغيم عليها أدلة متكافئة الأضداد ومؤرخون متحيزون، وقد يشوهها تشيعنا الوطنى أو الدينى. و«معظم التاريخ ظن وتخمين، والبقية الباقية تحامل وهوى»[2] بل إن المؤرخ الذى يفكر فى التسامى على محاباة بلده أو جنسه أو عقيدته أو طبقته يكشف عن نزوعه الخفى عن طريق اختياره للمواد والفروق الدقيقة للصفات والنعوت التى يستخدمها. «فالمؤرخ يسرف فى التبسيط دائما، ويتعجل فى انتقاء أقلية مقدور عليها من الوقائع والوجوه من وسط حشد من النفوس والحوادث التى لا يمكن له على الإطلاق أن يتقبل تشابكها المتعدد الألوان أو يدرك كنهه»[3] ـ ونعود فنقول إن ازدياد سرعة التغيير يجعل النتائج التى نستخلصها من الماضى إلى المستقبل أكثر انطواء على المخاطرة. ففى عام ١٩٠٩ ظن شارل بيجى* أن «العالم تغير منذ يسوع المسيح أقل مما تغير فى السنوات الثلاثين الأخيرة»[4]، وربما يضيف اليوم عالِم شاب من الحاصلين على الدكتوراه فى فلسفة الطبيعة أن علمه تغير منذ

* شارل بيجى (١٨٧٥ ـ ١٩١٤) شاعر وكاتب فرنسى كان شديد التعلق بتقاليد الحياة الفرنسية، عبر عن آرائه الكاثوليكية المتحررة فى أكثر من قصيدة.

عام ١٩٠٩، أكثر مما تغير من قبل على مدى التاريخ المكتوب. ففى كل عام ـ وأحيانا فى كل شهر فى حالة الحرب ـ يظهر اختراع أو منهج أو موقف جديد فيضطرنا إلى تعديل جديد فى السلوك والأفكار. بل قد يؤثر عنصر المصادفة، وربما عنصر الحرية، فى حركة المعادن والبشر. فنحن لم نعد على ثقة بأن الذرات، والأجسام الأقل منها، سوف تستجيب لنا فى المستقبل مثلما نظن أنها استجابت فى الماضى. فالإلكترونات تدفع ثمارها المدهشة إلى الحركة بطرق غامضة، كأنها ذلك الإله الذى صوره الشاعر الإنجليزى كوبر *. وربما أفسدت انعطافة حادة ما من انعطافات الشخصيات، أو الظروف، المعادلات الوطنية مثلما حدث حين سكر الإسكندر حتى الموت، وترك إمبراطوريته الجديدة تتداعى (عام ٣٢٣ ق.م) أو حين تم إنقاذ فردريك الأكبر ** من كارثة

* وليم كوبر (١٧٣١ - ١٨٠٠) شاعر إنجليزى موهوب، تعرض لأكثر من محنة عاطفية وعقلية، ولاذ بالدين، وصور الإله ذا حركة وأساليب غامضة فوق طاقة البشر.

** فردريك الأكبر (١٧١٢ - ١٧٨٦) ملك بروسيا من ١٧٤٠ إلى ١٧٨٦ مشهود له بكفاءة الحكم والانتصارات الحربية حتى حول بلاده إلى دولة كبرى، وكان يحب العلوم والفنون، ويؤلف الموسيقى. وفى ذلك العام المذكور (١٧٦٢) تولى الحكم فى روسيا - عقب وفاة القيصرة إليزابيث - القيصر بطرس الثالث، ولكنه اغتيل بعد قليل، فتولت بعده القيصرة كاترينا الثانية. وكان تنصيب بطرس إنقاذاً لفردريك من الهزيمة فى حرب السنوات السبع.

محققة بتولية قيصر روسى مفتون بالأساليب البروسية. (عام ١٧٦٢).

ومن الواضح أن كتابة التاريخ لا يمكن أن تكون علما. ولا يمكن إلا أن تكون صنعة أو فنا أو فلسفة — صنعة بتصيد الوقائع، وفنا بإقرار نظام ذى معنى داخل فوضى المادة، وفلسفة بالسعى وراء وجهة النظر والتنوير «فالحاضر هو الماضى الذى يُجْمَع من أجل الحركة، والماضى هو الحاضر الذى يُفَرَّق من أجل الفهم»(٥) ـ أو هكذا نعتقد ونرجو. فنحن فى الفلسفة نحاول أن نرى الجزء فى ضوء الكل، ولكننا فى «فلسفة التاريخ» نحاول أن نرى اللحظة الحاضرة فى ضوء الماضى. ونحن نعرف أن هذا فى كلتا الحالتين دعوة إلى الكمال. فوجهة النظر الكلية خداع بصرى. ونحن لا نعرف كل تاريخ الإنسان، ومن المرجح وجود الكثير من الحضارات قبل الحضارة السومرية أو الحضارة المصرية. فليس ما خرجنا به من الحفر والتنقيب سوى بداية! ويجب أن نعمل مسلحين بشيء من المعرفة، وأن نقنع مؤقتا بالاحتمالات. ففى التاريخ، كما فى العلم والسياسة، تسود النسبية. ويجب أن تخضع جميع الصيغ للشك. «فالتاريخ يسخر من جميع المحاولات التى تسعى لإجبار تدفقه على الدخول فى أطر نظرية أو أخاديد منطقية. وهو يطيح هنا بتعميماتنا

ويدمرها، ويكسر جميع القواعد. وما هو إلا كيان غريب غامض معقد»(٦). ولعلنا في هذه الحدود نستطيع أن نتعلم على نحو كاف من التاريخ كيف نأخذ الواقع بروية وصبر، وكيف يحترم كل منا أوهام الآخر.

ولما كان الإنسان لحظةً في الزمن الفلكي، وضيفاً عابراً على الأرض، وبذرة لنوعه، وطُعما لجنسه، ومُرَكّبا من الجسد والشخصية والعقل، وعضوا في أسرة ومجتمع، ومؤمنا بعقيدة أو شاكّا في العقائد، ووحدة في اقتصاد ما، وربما مواطنا في دولة أو جنديا في جيش، فقد نتساءل تحت العنوانات المناسبة لهذا كله ـ الفلك وعلم طبقات الأرض وعلم الأحياء وعلم الأعراق البشرية وعلم النفس والأخلاق والدين والاقتصاد والسياسة والحرب ـ عما يجب أن يقوله التاريخ عن طبيعة الإنسان وسلوكه وإمكاناته. وهذا عمل محفوف بالمخاطر، فلا يستطيع أحد سوى الأحمق أن يحاول ضغط مائة قرن في مائة صفحة من النتائج المنطوية على المخاطرة.

ولنتابع رحلتنا.

٢ ـ التاريخ والأرض

لعنا نُعرّف التاريخ، فى ازدواجيته المزعجة، بأنه حوادث الماضى أو سجلّه. والتاريخ الإنسانى بقعة محدودة فى الفضاء، وأول دروسه التواضع. ففى أية لحظة قد يقترب مُذنّب من الأرض أكثر من اللازم فيقلب كوكبنا الصغير رأسا على عقب بحركة محمومة، أو يخنق ما عليه من بشر وهوام بالغازات أو الحرارة، أو قد تنزلق على حين غرة قطعة من الشمس البشوش ـ كما حدث لكوكبنا منذ بضع لحظات فلكية فيما يعتقد البعض ـ وتهوى فوقنا فى عناق وحشى فتنهى كل الحزن والألم. ونحن نُسلّم بهذه الاحتمالات فى مشيتنا الواسعة الخطى، ونرد كيد الكون بكلمات بَسْكال*: «عندما يسحق العالم الإنسان سيظل الأخير أنبل من قاتله، لأنه يعرف أنه زائل، فى حين أن العالم لا يدرى شيئا عن النصر الذى يحققه»(٧) والتاريخ خاضع للجيولوجيا. ففى كل يوم يتعدى البحر

---

* بليز بسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢) عالم رياضيات وفيلسوف دينى فرنسى مشهور بحكمه.

على الأرض في مكان ما منها، أو تتعدى الأرض على البحر، وتختفي المدن تحت الماء، وتدق الكاتدرائيات الغريقة أجراسها الحزينة. وتعلو الجبال وتهبط على إيقاع النشوء والتآكل، وتتورم الأنهار وتفيض، أو تجف، أو تغير مجراها، وتصير الوديان صحارى، والبرازخ مضايق. ويبدو سطح الأرض كله لعين الجيولوجي على صورة سائل، ويتحرك الإنسان فوقه غير آمن، مثلما مشى بطرس على الأمواج إلى المسيح.

لم يعد المناخ يسيطر علينا بقسوة مثلما افترض مونتسكيو وبَكلْ Buckle * ولكنه يحدد حركتنا. فذكاء الإنسان كثيرا ما يتغلب على المعوقات الجيولوجية: يستطيع أن يروى الصحارى ويكيف هواء الصحراء، ويستطيع أن يسوى الجبال بالأرض أو يعتليها، وأن يغطي التلال بالكروم. كما يستطيع أن يبني مدينة عائمة تعبر المحيط، أو طيوراً عملاقة تجتاز السماء. ولكن إعصاراً يستطيع أن يدمر في ساعة واحدة المدينة التي استغرق بناؤها قرنا من الزمان، ويستطيع جبل من الجليد أن يقلب القصر العائم أو يشطره، ويرسل آلافاً من طلاب اللهو إلى اليقين الأعظم وهم يصخبون. ثم تَصَوّر المطر وقد

* شارل مونتسكيو (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) فيلسوف وأديب فرنسي اهتم بفلسفة التاريخ. أما هنري بكل (١٨٢١ ـ ١٨٦٢) فمؤرخ إنجليزي اهتم بالحضارة. وقد أسرفا في بيان أثر المناخ.

صار نادرا أكثر من اللازم، فعند ذاك تختفى الحضارة تحت الرمال، كما حدث فى آسيا الوسطى. وتصوره يسقط بغزارة أكثر من اللازم، فعند ذاك تغص الحضارة بالغابات، كما حدث فى أمريكا الوسطى. وتصور المتوسط الحرارى وقد ارتفع عشرين درجة فى مناطقنا الكروية المزدهرة، فعند ذاك سوف نرتد ـ على الأرجح ـ إلى الوحشية البليدة. وقد تتكاثر أمة من نصف بليون نسمة فى مناخ شبه استوائى كما يتكاثر النمل، ولكن الحرارة الضعيفة قد تخضعها للغزو المتكرر من جانب محاربين ينتمون إلى مواطن أكثر حفزاً وتنبيها. وثمة أجيال من البشر تسيطر على الأرض سيطرة متزايدة، ولكنها محكوم عليها بأن تصير بقايا متحجرة فى تربتها.

والجغرافيا هى رحم التاريخ، وأمه التى تغذيه، ووطنه الذى يربيه. فأنهارها وبحيراتها وواحاتها تجتذب المستوطنين إلى شطآنها، لأن الماء حياة الكائنات الحية والمدن، وهو يتيح طرقا زهيدة التكاليف للنقل والتجارة. وقد كانت مصر «هبة النيل»، والعراق بنى حضارات متتالية «بين النهرين» وعلى ضفاف قنواتهما الدفاقة. وكانت الهند ابنة الإندوس والبراهمابوترا والجانج. ودانت الصين بحياتها وأحزانها للأنهار العظيمة التى كثيرا ما تسكعت (مثل أنهارنا) بعيداً عن مصابّها، وخصّبت الأراضى المجاورة بتدفقها الفياض. وزينت إيطاليا وديان أنهار تيبر وآرنو وبو Po. ونمت النمسا على ضفتى الدانوب،

وألمانيا على ضفاف إلبه Elbe والراين، وفرنسا على ضفاف الرون واللوار والسين. وتغذت مدينتا البتراء وتدمر على الواحات في الصحراء.

عندما ازداد عدد الإغريق أكثر من اللازم، وضاقت بهم حدود بلادهم، أسسوا مستعمرات على امتداد البحر المتوسط («مثل الضفادع حول البركة»[8] كما قال أفلاطون) والبحر الأسود أيضا. وطوال ألفي سنة ـ من موقعة سلاميس (عام ٤٨٠ ق.م) إلى هزيمة الأسطول الإسباني (عام ١٥٨٨) ـ كانت شواطئ البحر المتوسط الشمالية والجنوبية مراكز متنافسة لسطوة الرجل الأبيض. ولكن رحلات كولومبوس وفاسكو داجاما، عام ١٤٩٢ وما بعده، دعت الناس إلى تحدي المحيطات. وبذلك اهتزت سيادة البحر المتوسط، وسقطت جنوا وبيزا وفلورنسا والبندقية، وبدأ عصر النهضة في الخفوت، وصعدت أم الأطلسي، ومدت سيادتها في النهاية على نصف العالم. وكتب جورج بِركلي* نحو عام ١٧٣٠: «إن اتجاه الإمبراطوريات يتخذ طريقه نحو الغرب» فهل تستمر الحال عبر المحيط الهادي، فتصدّر التقنيات الصناعية والتجارية الأوروبية

* جورج بركلي (١٦٨٥ ـ ١٧٥٣) فيلسوف أيرلندي دعا إلى الاعتداد بما يصل إلى الحواس، واعتبار الأفكار التي تطرأ عن طريقها الأشياء الوحيدة الحقيقية.

والأمريكية إلى الصين كما حدث من قبل مع اليابان؟ وهل تجلب الخصوبة الشرقية، بالتعاون مع آخر مستحدثات التكنولوجيا، السقوط على الغرب؟

إن تطور الطائرة سوف يغير مرة أخرى خارطة الحضارة. وستزداد قلة اعتماد طرق التجارة على الأنهار والبحار، وسيزداد طيران البشر والبضائع مباشرة إلى أهدافهم. وسوف تفقد بلدان مثل انجلترا وفرنسا الميزة التجارية التى تتمتع بها سواحلها الغنية المتعرجة ذات التضاريس المريحة، وسوف تبطل بلدان أخرى مثل روسيا والصين والبرازيل التى عوقتها زيادة أراضيها على سواحلها جزءا من هذه العقبة عن طريق الخروج إلى الجو. وسوف يَقِلُّ ثراء المدن الساحلية من الاشتغال الفارغ بنقل البضائع من البواخر إلى القطارات، أو من القطارات إلى البواخر. وحين تتخلى سلطة البحر عن مكانها فى النهاية لسلطة الجو فى النقل والحرب نكون قد شهدنا إحدى الثورات الأساسية فى التاريخ. وكلما نمت التكنولوجيا قلّ سلطان العوامل الجغرافية. وقد يتيح طابع الأرض وسطحها الفرص للزراعة أو التعدين أو التجارة، ولكن لم يحوّل الممكنات إلى حقائق سوى خيال الزعماء ومبادرتهم، والمثابرة الجريئة عند أتباعهم. ولا يمكن لثقافة ما أن تتشكل وتتغلب على مئات العقبات الطبيعية إلا بمزيج مماثل (كما هى الحال فى إسرائيل اليوم) فالإنسان هو الذى يصنع الحضارة، لا الأرض.

٣ ـ البيولوجيا والتاريخ

التاريخ جزء من البيولوجيا، فحياة الإنسان قطعة من التقلبات التى تصيب الكائنات الحية على الأرض والبحر. وإذا نحن تجولنا ذات يوم صيفى فى الغابات لترامت إلى سمعنا أو بصرنا ـ أحيانا ـ حركة مئات الأنواع من الأشياء التى تطير وتقفز وتزحفَ وتحبو وتحفر. وعند ظهورنا تعدو الحيوانات المجفلة بعيدا، وتتناثر الطيور، وتتفرق الأسماك فى الغدير. وعلى حين غرة ندرك أننا ننتمى إلى أقلية خطرة على هذا الكوكب غير المتحيز، ونشعر للحظة ـ مثلما تفعل هذه الطائفة المتنوعة من السكان المتأقلمين ـ بأننا متطفلون عابرون على موطنهم الطبعى. وعندئذ تسقط جميع تواريخ الإنسان ومنجزاته بتواضع داخل تاريخ الحياة المتعددة الأشكال وتطورها. فكل ما نملك من تنافس اقتصادى، وكفاح فى سبيل شركاء حياتنا، وجوع، وحب، وحزن، وحرب، له مثيل فى مظاهر السعى والتزاوج والكفاح والعناء التى تختفى تحت هذه الأشجار أو الأوراق المتساقطة، أو فى المياه، أو فوق الأغصان.

وهكذا تكون قوانين البيولوجيا الدروسَ الأساسية للتاريخ. فنحن رهن عمليات الارتقاء ومحاولاته، والصراع من أجل الوجود وبقاء الأصلح في الوجود. وإذا بدا أن بعضنا يفرُّ من الكفاح أو المحاولات فما ذلك إلا لأن جماعتنا تحمينا، ولكن هذه الجماعة ذاتها لابد أن تمر باختبارات البقاء.

ومن ثمة يكون أول درس للتاريخ هو أن الحياة منافسة. فالمنافسة ليست حياة التجارة وحسب، وإنما هي تجارة الحياة ـ تكون مسالمةَ حين يتوافر الطعام، وعنيفة حين تزيد الأفواه على الطعام. فالحيوانات يأكل بعضها البعض دون أى وخز للضمير، والمتحضرون يستهلك كل منهم الآخر عن طريق التقاضى أمام القانون. والتعاون أمر حقيقى، يزداد مع التطور الاجتماعى، ولكن ذلك ليس فى الأغلب إلا لأنه أداة للمنافسة وشكل من أشكالها. فنحن نتعاون فى جماعتنا ـ أسرتنا أو مجتمعنا أو نادينا أو كنيستنا أو حزبنا أو «جنسنا» أو أمتنا ـ لكى نقوى جماعتنا فى منافستها للجماعات الأخرى. والجماعات المتنافسة لها خصائص الأفراد المتنافسين: الاقتناء والمشاكسة والتحزُّب والغرور. ودولنا على صورتنا، لأنها مكونة من تكاثرنا. فهى تكتب طبائعنا بحروف بارزة، وتمارس خيرنا وشرّنا على نطاق واسع. ونحن نحب الاقتناء، طماعون،

ومشاكسون، لأن دمنا لا ينسى آلاف السنين التى كان على أجدادنا فيها أن يطاردوا ويحاربوا ويقتلوا من أجل أن يعيشوا، وكان عليهم أن يأكلوا بأقصى ما تسعه معداتهم خوفا من ألا يصيبوا وليمة أخرى في الأمد القريب. وما الحرب إلا طريقة الأمة فى الأكل. وهى تروج للتعاون لأنها تمثل أقصى أشكال المنافسة. وإلى أن تصبح دولنا أعضاء فى جماعة كبيرة، قادرة على الحماية، فسوف تستمر فى السلوك مسلك الأفراد والأسرات فى مرحلة القنص.

أما الدرس البيولوجى الثانى للتاريخ فهو أن الحياة انتخاب واختيار. ففى التنافس على الطعام أو الزواج أو السلطة تنجح بعض الكائنات الحية، ويفشل البعض الآخر. وفى الصراع من أجل الوجود يكون بعض الأفراد مؤهلين أكثر من غيرهم لمواجهة اختبارات البقاء. ونظرا لأن الطبيعة (تعنى هنا حصيلة الواقع وعملياته) لم تقرأ بعناية شديدة إعلان الاستقلال الأمريكى أو إعلان حقوق الإنسان الذى أصدرته الثورة الفرنسية، فنحن جميعا نولد غير أحرار وغير متساوين* : نخضع لعامل وراثتنا البدنية والنفسية، وعادات جماعتنا وتقاليدها، ونتفاوت فى نصيبنا من الصحة والقوة والقدرة العقلية وخصائص الشخصية. فالطبيعة تحب الاختلاف بصفته المادة

* نص الإعلانان المذكوران على أن الناس يولدون أحرارا ومتساوين.

الضرورية للانتخاب والارتقاء، والتوأم المتماثل يختلفان فى مئات النواحى، ولا توجد حبتان من البازلاء متشابهتان.

وعدم المساواة ليس طبعيا وفطريا وحسب، وإنما هو ينمو بتعقد الحضارة. وألوان عدم المساواة الوراثى تفرخ ألوانا من عدم المساواة الاجتماعى والصناعى. فكل اختراع أو اكتشاف إنما يقوم به الفرد غير العادى أو يستولى عليه. وهو يجعل القوى أقوى، والضعيف أضعف، نسبيا عن ذى قبل. والتطور الاقتصادى يحدد تخصصات الوظائف، ويفاضل بين القدرات، ويجعل الناس مفيدين لجماعتهم بصورة غير متساوية. ولو أننا عرفنا إخواننا فى البشرية معرفة جيدة لأمكننا انتخاب ثلاثين بالمائة منهم ممن تساوى قدرتهم المشتركة قدرة الباقين جميعا. وهذا عين ما تفعله الحياة والتاريخ، بظلم مهيب يذكرنا بالإله الذى صوره كالفن*.

إن الطبيعة تسخر من اتحاد الحرية والمساواة فى اليوتوبيات (المدن الفاضلة) التى ألفناها. فالحرية والمساواة عدوَّان لدودان ودائمان، إذا ساد أحدهما مات الآخر. وإذا جعلت الناس يعيشون أحراراً فعندئذ ستتكاثر ألوان عدم المساواة الطبعى عندهم، بطريقة تكاد تكون

* جون كالفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) مصلح دينى بروتستنتى، صور الإله قاسيا لا يرحم كثيراً، فهو يخص البعض برحمته، وينزل على البعض الآخر نقمته.

هندسية، كما حدث في انجلترا وأمريكا في ظل سياسة الحرية الاقتصادية laissez - Faire خلال القرن ١٩ .

ولكي نوقف نمو عدم المساواة فلا بد من التضحية بالحرية، كما حدث في روسيا بعد عام ١٩١٧ . وحتى إذا كبتنا عدم المساواة فلا نستطيع إيقافه عن النمو. فلا يرغب في المساواة إلا الشخص الذى يكون دون المتوسط في القدرة الاقتصادية. أما أولئك الذين يدركون قدرتهم المتفوقة فيرغبون في الحرية. وفي النهاية تجد القدرة المتفوقة طريقها. أما اليوتوبيات التي تصور المساواة فمقضى عليها من الناحية البيولوجية. وأفضل ما يمكن أن يتمناه الفيلسوف الودود هو المساواة التقريبية في العدالة القانونية وفرص التعليم. فالمجتمع الذى يتيح لجميع القدرات الممكنة أن تتطور وتعمل ستكون له ميزة البقاء في المنافسة بين جماعاته. وتصبح هذه المنافسة أكثر حدة وقسوة عندما يؤدى القضاء على المسافات إلى زيادة المواجهة بين الدول.

وأما الدرس البيولوجى الثالث للتاريخ فهو أن الحياة يجب أن تتوالد. فالطبيعة لا تنتفع بالكائنات الحية، أو المنحرفة عن نوعها، أو الجماعات، التي لا تتوالد بوفرة. فهي تعشق الكم كشرط أساسى لانتخاب الكيف، وتحب البطون* الكبيرة من المواليد، وتستطيب

* جمع بَطْن، والبطن في اللغة: المرة الواحدة من النّتاج والزرع.

الصراع الذى يختار القلة القادرة على البقاء، وتراقب ـ بغير شك وعن رضا ـ السباق الذى تقوم به عكس التيار ألوف النطف الساعية إلى تلقيح بويضة واحدة. وهى تهتم بالنوع البشرى أكثر مما تهتم بالفرد، ولا تفرق كثيرا بين الحضارة والهمجية. ولا يعنيها أن المعدل المرتفع فى المواليد يرافق ـ عادة ـ الحضارة الهابطة ثقافيا، وأن المعدل المنخفض فى المواليد رافق الحضارة العالية ثقافيا. كما أنها (تعنى هنا الطبيعة بصفتها عملية ميلاد، وانحراف عن النوع، ومنافسة، وانتخاب، وبقاء) معنية بأن تعاقب الأمة ذات معدل المواليد المنخفض، من وقت لآخر، بجماعة أكثر رجولة وفحولة. فقد بقى الغال* على قيد الحياة قبالة الألمان عن طريق فيالق الجيش الرومانى فى أيام قيصر، وكذلك عن طريق معونة الفيالق البريطانية والأمريكية فى أيامنا. فعندما سقطت روما أسرع الفرنجة** إلى هناك قادمين من ألمانيا، وجعلوا بلاد الغال فرنسا. وإذا قدِّر لانجلترا وأمريكا أن تسقطا لتكرر اكتساح فرنسا التى ظل سكانها ثابتين تقريبا طوال القرن ١٩.

إذا زاد الجنس البشرى أكثر من اللازم على المتاح من الطعام قامت الطبيعة عند ذاك بإعادة التوازن عن طريق ثلاث وسائل:

* الغال: الاسم القديم للفرنسيين Gaul.

** الفرنجة أو الفرنكة Franks قبائل جرمانية احتلت فرنسا فى القرن ٦.

المجاعة، والوباء، والحرب. وقد شرح توماس مالتوس فى كتابه المشهور «مقال عن السكان» (عام ١٧٩٨) كيف أنه بغير هذه الضوابط الدورية كان معدل المواليد سيفوق ـ حتى ذلك الوقت ـ معدل الوفيات، بحيث يوقف تكاثر الأفواه أية زيادة فى إنتاج الطعام. ومع أن مالتوس كان رجل دين، ذا روح خيرة، فقد أوضح أن توزيع المساعدات المالية أو التموينية على الفقراء شجعهم على الزواج المبكر والتكاثر بصورة مسرفة، مما زاد المشكلة سوءاً. وفى طبعة ثانية من الكتاب (عام ١٨٠٣) نصح بالامتناع عن الاتصال الجنسى إلا للإنجاب، ولكنه أبى أن يوافق على الطرق الأخرى لتحديد النسل. ولم يكن يأمل كثيرا فى قبول هذه النصيحة الورعة، ولذلك تنبأ بأن التوازن بين الأفواه والطعام يمكن صيانته فى المستقبل، مثلما حدث فى الماضى، عن طريق المجاعة والوباء والحرب.

ويبدو أن التقدم الذى أحرزته تكنولوجيا الزراعة ومنع الحمل فى القرن ١٩ أدى إلى دحض آراء مالتوس: ففى انجلترا والولايات المتحدة وألمانيا وفرنسا تناسب المتاح من الطعام مع المواليد، وأرجأ ارتفاع مستوى المعيشة سن الزواج، وخفّض حجم الأسرة. وكان تكاثر المستهلكين يعنى أيضا تكاثر المنتجين، فقد طورت «الأيدى» الجديدة أراضى جديدة لإنتاج طعام أكثر. كما ظهر جواب حى

على أسئلة مالتوس ممثلا فى ما يحدث حاليا فى كندا والولايات المتحدة من تصدير لملايين البوشلات* من القمح مع تجنب المجاعة والوباء في الداخل. ولو طبقت المعرفة الزراعية الراهنة فى كل مكان لأمكن لكوكبنا أن يُـطْـعِـم ضعف سكانه الحاليين.

لا شك أن مالتوس كان سيرد على ذلك بأن هذا الحل مجرد تأجيل للكارثة. فخصوبة التربة لها حدود، وكل تقدم فى التكنولوجيا الزراعية تبطله ـ إن عاجلاً أو آجلاً ـ زيادة المواليد على الوفيات، وفى ذات الوقت يوقف الطب والصحة العامة والأعمال الخيرية عملية الانتخاب عن طريق المحافظة على حياة غير الصالحين، بحيث ينجبون أمثالهم. ويرد الأمل على هذا بأن مظاهر التقدم فى الصناعة والتمدن والتعليم ومستويات المعيشة فى البلاد التى تهدد العالم اليوم بخصوبتها سيكون لها ـ على الأرجح ـ ذات التأثير هناك فيما يتعلق بتخفيض معدل المواليد، مثلما كان لها فى أوروبا وأمريكا الشمالية. وإلى أن يتحقق ذلك التوازن بين الإنتاج والإنجاب سيكون من الخير للبشر أن ننشر معرفة منع الحمل ووسائله. فالوضع المثالى للأبوة يقتضى أن تكون امتيازا صحيا، لا أن تكون نتاجا ثانويا للإثارة الجنسية.

---

* البوشلات جمع بوشل وهو مكيال للحبوب يساوى ثمانية جالونات، أى ٣٢٫٥ لتر.

هلى ثمة دليل على أن تحديد النسل مفيد للصفات الوراثية ـ بمعنى أنه يخفض المستوى العقلى للأمة التى تمارسه؟ من المسلم به أن الذين طبقوه من الأذكياء كانوا أكثر ممن طبقه من البسطاء، وأن جهود الموجهين تبطلها فى كل جيل ـ على ما يبدو ـ خصوبة الجاهلين. ولكن الكثير مما ندعوه ذكاء هو نتاج تعليم الفرد وفرصه وتجربته. ولا يوجد دليل على أن هذه المكتسبات العقلية تنتقل فى الجينات أو الصفات الوراثية Genes. بل إن أطفال الحاصلين على درجات الدكتوراه لا بد أن يتعلموا، وأن يمرضوا بحَصْبة الأخطاء والمبادئ الجامدة والمذاهب. ونحن لا نستطيع أن نحدد كمية القدرة والعبقرية الكامنة التى تتوارى فى كروموزومات أو صبغيات الفقراء المرهقين والمعوقين. فالحيوية البدنية من الناحية البيولوجية قد تكون عند الميلاد ذات قيمة أكبر من النّسب العقلى. وقد رأى نيتشه أن أفضل دم فى ألمانيا يجرى فى عروق الفلاحين. ولكن الفلاسفة ليسوا أصلح مادة لتناسل الأجناس.

لقد قام تحديد الأسرة بدور ما فى تاريخ اليونان وروما. ومن الطريف أن نجد يوليوس قيصر يمنح (عام ٥٩ ق.م) جوائز للرومان الذين أنجبوا أطفالا كثيرين، ويمنع النساء اللواتى لم ينجبن من استخدام المحفّات فى التنقل، أو التزين بالمجوهرات. ثم جدد

أغسطس هذه الحملة بعد نحو أربعين عاما. ولكن المحاولتين لم تنجحا. واستمر تحديد النسل فى الانتشار داخل الطبقات العليا فى الوقت الذى سدت فيه النقص سلالات مهاجرة من الشمال الجرمانى والإغريقى أو الشرق السامى، وغيرت سكان إيطاليا(٩). ومن المحتمل جدا أن هذا التغيير العرقى خفّض قدرة السكان أو رغبتهم فى مقاومة العجز الحكومى والهجوم الخارجى.

وفى الولايات المتحدة قلل معدل المواليد المنخفض بين الأنجلوسكسون سلطتهم الاقتصادية والسياسية. كما يوحى معدل المواليد المرتفع فى الأسر ذات العقيدة الكاثوليكية الرومانية بأن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ستكون القوة المهيمنة على الحكم عام ٢٠٠٠، على صعيد الأمة والبلديات والولايات. ثمة عملية مشابهة تجرى حاليا فى فرنسا وسويسرا وألمانيا لاسترجاع الكاثوليكية. وقد تعود أرض فولتير وكالفن ولوثر فى القريب العاجل إلى حضن البابا. وهكذا، فإن معدل المواليد، شأنه شأن الحرب، قد يجدد مصير اللاهوت. وقد يحدث ما حدث عندما صانت هزيمة المسلمين فى تور (عام ٧٣٢) فرنسا وإسبانيا من إحلال القرآن محل الإنجيل، فيلغى تفوق الكاثوليك فى التنظيم والانضباط والأخلاق والإخلاص

والخصوبة حركة الإصلاح البروتستانتية وحركة التنوير الفرنسية.
وبذلك لا يوجد للتاريخ نظير فى الظرف والفكاهة.

٤ ـ العرق والتاريخ

يعيش على ظهر الأرض نحو بليونين من الملونين، ونحو تسعمائة مليون من البيض. ومع ذلك سعد كثير من ذوى البشرة البيضاء حين أعلن الكونت جوزيف ـ آرثر دى جوبينو* فى كتابه «مقال عن علم المساواة بين الأجناس البشرية» (أعوام ١٨٥٣ ـ ٥٥) أن البشر يتألفون من أجناس مميزة، مختلفة بالفطرة (مثل الأفراد) فى بنية الجسم والقدرة العقلية وخصائص الشخصية، وأن جنسا واحدا هو «الآرى» متفوق بالطبيعة على سواه. وقال:

«كل شيء عظيم أو نبيل أو مثمر فى أعمال الإنسان على ظهر هذا الكوكب، فى الفن والحضارة، يصدر من نقطة انطلاق واحدة، وينتج عن تطور جرثومة واحدة... وينتمى لأسرة واحدة بعينها، سادت فروعها المختلفة فى جميع أقطار العالم المتحضرة... فالتاريخ يبين أن الحضارة

* جوبينو مفكر فرنسى متعصب للجنس الآرى الأبيض.

بأسرها مصدرها الجنس الأبيض، وأنه لا يمكن لأية حضارة أن توجد بغير عونه، وأن أي مجتمع لا يعظم ولا يتألق إلا إذا حافظ على دم الجماعة النبيلة التي خلقته»[١٠].

ولا يمكن لأية مزايا بيئية (كما يقول جوبينو) أن تفسر نشوء الحضارة، لأن ذات النوع من البيئة (مثل الأنهار المخصبة للتربة) الذي سقى حضارات مصر والشرق الأدنى لم ينتج حضارة بين هنود أمريكا الشمالية، بالرغم من أنهم عاشوا على تربة خصبة بين أنهار رائعة. بل لا تصنع المؤسسات الاجتماعية حضارة، لأن هذه الحضارة نشأت في ظل اختلاف المؤسسات، بل تناقضها، كما في مصر الملكية وأثينا «الديموقراطية». وعلى نوعية الجنس الكامنة يتوقف نشوء الحضارة وانهيارها وسقوطها. وتحلل حضارة يعني ما يشير إليه هذا المصدر ذاته ـ أي الانشقاق عن النوع أو السلالة أو الجنس «فالشعوب لا تتحلل إلا نتيجة ما تمر به من اختلاطات عديدة في الدم»[١١]. ويحدث هذا في العادة من خلال التزاوج بين الجنس القوي والأجناس التي غزاها. وهذا سر تفوق البيض في الولايات المتحدة وكندا (الذين لم يتزاوجوا مع الهنود) على البيض في أمريكا اللاتينية (الذين تزاوجوا). ولا يتكلم عن المساواة بين الأجناس، ولا يظن أن «جميع البشر إخوة»[١٢]، إلا أولئك الذين

جاءوا نتيجة مثل هذا الاختلاط الذى يجلب الضعف. وتتميز كل الشخصيات والشعوب القوية بأنها واعية بمسألة الجنس، وتعادى بصورة فطرية الزواج خارج جماعتها العرقية.

في عام ١٨٩٩ نشر هوستون ستيوارت تشيمبرلين، وهو إنجليزى استوطن ألمانيا، كتاباً بالألمانية تحت عنوان «أسس القرن التاسع عشر». وفيه ضيّق حدود الجنس المبدع، ونقلها من الآريين إلى التيوتون* Teutons. وقال: «يبدأ التاريخ الحقيقى من اللحظة التى استولى فيها الألمان بيد قوية على ميراث العصور القديمة» واستوقف وجه دانتى** تشيمبرلين فقال عنه إنه وجه ألمانى على نحو متميز، وظن أنه سمع لهجات ألمانية واضحة فى الرسالة الإنجيلية التى بعث بها القديس بول إلى أهل غالاطيا. ومع أنه لم يكن متأكداً للغاية من أن المسيح ألمانى فقد كان على ثقة بأن «كل من يؤكد أن المسيح كان يهوديا فهو إمّا جاهل أو كاذب»(١٣). وكان الألمان من الأدب الشديد بحيث لم يكذبوا ضيفهم. فقد اعترف ترايتشكه وبرناردى بأن الألمان أعظم الشعوب الحديثة، وطبق فاجنر النظرية

---

* التيوتون شعب جرمانى، أو سلتى، قديم.

** دانتى (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) الشاعر الإيطالى المعروف بملحمته «الكوميديا الإلهية».

على الموسيقى، وجعل ألفرد روزنبرج الدم الألمانى والأرض الألمانية مصدر إلهام «أسطورة القرن العشرين». وعلى هذا الأساس أثار أدولف هتلر الألمان، حتى يذبحوا شعبا، ويقوموا بفتح أوروبا.

وقام أمريكى، هو ماديسون جرانت، فى كتاب بعنوان «زوال الجنس العظيم» (عام ١٩١٦) بوقف منجزات الحضارة على ذلك الفرع من الآريين الذى أسماه «النورديون» Nordics أو أبناء الشمال ـ وهم الاسكندنافيون، والسيثيون* Scythians، وألمان بحر البلطيق، والإنجليز، والأمريكيون ذوو الأصول الأنجلوسكسونية. وقد اكتسب هؤلاء جميعا صلابة من أثر برودة فصول الشتاء الشمالية، واكتسحت واحدة أو أخرى من قبائلهم، ذات الشعر الأصفر و«الوحوش الشقر» ذوى العيون الزرق، روسيا والبلقان حتى دخلت الجنوب الكسول البليد فى سلسلة من الفتوحات التى سجلت فترة فجر التاريخ المكتوب. ويقول جرانت إن السقائيين Sa-cae (أم هم السيثيون؟) غزوا الهند، وأنشأوا اللغة السنسكريتية كلغة «إندو أوروبية» وأسسوا نظام الطوائف** Caste، حتى

* السيثيون اسم أطلقه الإغريق على أهالى الشاطئ الشمالى للبحر الأسود. وهم شعب إندو أوروبى من أصل آسيوى ماهر فى ركوب الخيل والصناعات والفنون، اندمج فى القوط وغيرهم فى النهاية خلال القرنين ٢، ٣

** نظام الطوائف اجتماعى يقوم على التمييز الطبقى حسب المنزلة أو الثروة، إلخ.

يحولوا دون تدهورهم بفعل التزاوج مع السلالات السمراء من الأهالي. وتدفق السيمريون* Cimmerians على جبال القوقاز ومنها إلى فارس. كما تدفق الفريجيون Phrygians على آسيا الصغرى، والآخائيون Achaeans والدوريون Dorians على اليونان وكريت، والأومبريون Umbrians والأوسكانيون Oscans على إيطاليا. وكان النورديون في كل مكان نزلوا به مغامرين ومحاربين ودعاة نظام وانضباط. وقد حكموا أو استرقوا الشعوب المزاجية المتقلبة الكسولة التي تعيش بـ«حوض البحر المتوسط» في الجنوب، وتزاوجوا مع السلالات المتوسطة الهادئة الراضية التي تعيش بمنطقة «جبال الألب» وأنجبوا أبناء أثينا في أوج عصر بركليس** والرومان في عصر الجمهورية. وكان الدوريون أقل تزاوجا، ولكنهم صاروا يعرفون بالاسبرطيين (نسبة لاسبرطة) الذين يعدون طائفة نوردية

---

* السيمريون شعب بدوى أقام بمنطقة القرم واكتسح آسيا الصغرى في القرن ٧ ق.م ثم قضت عليه الأوبئة والحروب مع الليديين والأشوريين. والفريجيون شعب آسيوى الأصل أسس مملكة فى تركيا الحالية بلغت أوجها فى القرن ٨ق.م ثم قضى عليها السيمريون بعد قرنين. والآخائيون والدوريون استوطنوا اليونان قبل القرن ٨ق.م.

** بركليس (٤٩٠ ـ ٤٢٩ق.م) سياسى وخطيب وقائد عسكرى يونانى ارتفعت أثينا فى عهده إلى قمة ازدهارها.

محاربة حكمت أقنان «البحر المتوسط» . وقد أضعف التزاوج السلالة النوردية فى أتيكا* وألانها، وأدى إلى هزيمة أثينا أمام اسبرطة فى حرب البيلوبونيز** وإخضاع اليونان للنورديين الأكثر نقاء فى مقدونيا وروما الجمهورية.

وفى غمرة أخرى من غمرات النورديين ـ مصدرها إسكندينافيا وشمال ألمانيا ـ فتح القوط والفندال روما الإمبراطورية، وفتح الإنجليز والسكسون انجلترا وأطلقوا عليها اسما جديدا، وقام الفرنكة بفتح بلاد الغال وأطلقوا عليها اسمهم. بل فتح النورمان النورديون ـ بعد ذلك ـ فرنسا وانجلترا وصقلية. واتبع اللومبارديون النورديون لحاهم الطويلة حتى دخلوا إيطاليا، حيث تزاوجوا، وجعلوا ميلانو وفلورنسه تزدهران وتصنعان عصر النهضة. وفتح الفرنجيون*** Varangians روسيا وحكموها حتى عام ١٩١٧ . واستعمر الإنجليز النورديون أمريكا واستراليا، وفتحوا الهند، وأقاموا نقطا للحراسة فى جميع الموانى الكبيرة فى آسيا.

---

* أتيكا هو الاسم القديم للمنطقة التى تضم أثينا فى العصور القديمة.

** حرب البيلوبونيز نشبت فى الفترة من ٤٣١ إلى ٤٠٤ق.م بين اسبرطة وأثينا. واستعانت المدينتان الدولتان بحليفين حتى انتهت الحرب بالقضاء على إمبراطورية أثينا وانتقال زعامة اليونان لفترة قصيرة إلى اسبرطة.

*** الفرنجيون تغلغلوا فى روسيا قادمين من الشمال فى القرنين ٩ ـ ١٠ .

هذا الجنس النوردى أخذ يتخلى عن تفوقه فى عصرنا (كما يقول جرانت متفجعا) فقد أضاع منزلته الوطيدة فى فرنسا عام ١٧٨٩. وكانت الثورة الفرنسية (فى ذلك العام) ـ كما قال كاميل دزمولان* لرواد مقهاه ـ ثورة أبناء الغال الأصلاء («الألبيين») على الفرنكة التيوتونيين الذين استعبدوهم فى عهدى كلوفيس وشرلمان**. وكانت الحروب الصليبية، وحرب السنوات الثلاثين، وحروب نابليون، والحرب العالمية الأولى، قد استنزفت السلالة النوردية، وتركتها من النحول بحيث لا تستطيع مقاومة معدل المواليد الأعلى عند الشعوب الألبية والمتوسطية فى أوروبا وأمريكا. وبحلول عام ٢٠٠٠ (كما يتنبأ جرانت) يكون النورديون قد سقطوا عن عرشهم. وبسقوطهم ستختفى الحضارة الغربية، وتتحول إلى همجية جديدة تنفجر فى كل مكان من الداخل والخارج. ولكنه سلّم بطريقة ذكية بأن «الجنس» المنتمى للبحر

---

* كاميل دزمولان (١٧٦٠ ـ ١٧٩٤) من أشد زعماء الثورة الفرنسية تطرفا وقسوة وهجوما على الأرستوقراطية ورجال الدين. أعدم مع زميله دانتون.

** كلوفيس (٤٦٥ ـ ١١) من أشهر ملوك الفرنكة الذين حكموا بلاد الغال. اعتنق المسيحية، وهزم البيرجنديين والقوط الغربيين واتخذ باريس مقرا له. أما شرلمان (٧٤٢ ـ ٨١٤) فمن أشهر ملوك الفرنكة أيضا. صار امبراطورا للرومان وكانت إمبراطوريته تضم بلاد الغال وإيطاليا ومعظم أسبانيا وألمانيا.

المتوسط أثبت أنه متفوق فى المنجزات الفكرية والفنية، على الرغم من تفوق النورديين والألبيين عليه في قدرة الاحتمال البدنى. وإليه يجب أن نُرجع الفضلَ في الازدهار القديم عند اليونان وروما. ومع ذلك ربما يدين بالكثير للتزاوج مع الدم النوردى.

ومن الواضح أن نظرية الأجناس يعتريها الضعف. فلعل باحثا صينيا يذكرنا بأن قومه أبدعوا أشد الحضارات ثباتا وبقاء فى التاريخ ـ على صعيد السَاسة والمخترعين والفنانين والشعراء والعلماء والفلاسفة والقديسين، ابتداء من عام ٢٠٠٠ق.م حتى زماننا هذا. ويستطيع باحث مكسيكى أن يشير إلى المبانى المهيبة التى أبدعتها ثقافات المايا والأزتيك والإنكا* فى أمريكا قبل كولومبوس. ولعل عالما هنديا يذكر أن الشعوب الدرافيدية** السوداء في جنوب الهند

* المايا حضارة هندية أمريكية وصلت ذروتها فى الفترة من القرن ٤ إلى القرن ٨، وازدهرت فى الفنون والتعليم والزراعة، وبقيت منها هياكل مبان ومعابد. والأزتيك حضارة أخرى ظهرت وسط المكسيك فى القرن ١٢ واشتهرت بالقدرة القتالية وبناء الأهرامات والمعابد والقصور. أما الإنكا فحضارة ظهرت فى جبال الإنديز الوسطى فى القرن ١٣ واشتهرت بالمهندسين المهرة وشبكة الطرق الكبيرة والمبانى الضخمة.

** الدرافيديون شعوب سمراء البشرة فى جنوب الهند وسريلانكا لهم مجموعة لغات سيطرت على معظم الهند قبل وصول الآريين إليهم عام ١٠٠٠ ق.م.

أنتجت بناة وشعراء كبارا فى الوقت الذى يعترف فيه بالتسلل «الآرى» فى شمال الهند منذ نحو ١٦٠٠ عام قبل الميلاد، فمعابد مدراس ومادورا وتريكينوبولى تعد من أشد المبانى التى على ظهر الأرض إثارة للإعجاب. بل إن الأكثر روعة هو الضريح الباسق الذى ينتمى لمملكة خمير* Khmer بمدينة أنجكور واط. فالتاريخ لا يميز بين الألوان، وفى مقدوره إنشاء حضارة (فى أية بيئة مواتية) فى ظل أية بشرة تقريبا.

غير أن الصعوبات تظل باقية إذا اقتصرت نظرية الأجناس على الإنسان الأبيض. فلعل الساميين يذكرون حضارات بابل، وآشور، وسوريا، وفلسطين، وفينيقيا، وقرطاجة، والإسلام. فقد قدم اليهود الإنجيل والمسيحية لأوربا، وقدموا لمحمد الكثير مما اشتمل عليه القرآن. ويستطيع أتباع محمد أن يعددوا الحكام والفنانين والشعراء والعلماء والفلاسفة الذين فتحوا وزينوا جانبا كبيرا من عالم الإنسان الأبيض، من بغداد إلى قرطبة، فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا الغربية تتحسس طريقها خلال العصور المظلمة (نحو ٥٦٥ ـ ١٠٩٥)

---

* مملكة خمير بلغت أوجها فى القرن ١١ ودمرتها الفتوحات فى القرنين ١٢، ١٤.

ومن الثابت أن الثقافات القديمة في مصر واليونان وروما كانت نتاجا للفرص الجغرافية والتطور الاقتصادى والسياسى، لا للتكوين العرقى. ويرجع الكثير من حضاراتها إلى مصدر شرقى(١٤). فقد أخذت اليونان فنونها وآدابها من آسيا الصغرى وكريت وفينيقيا ومصر. وفى الألف الثانية ق.م كانت الثقافة اليونانية «ميسينية»* Mycenaean، نبعت من كريت إلى حد ما، وتأثرت بما تعلمته من آسيا الصغرى. وعندما جاء الدوريون «النورديون» وتغلغلوا فى البلقان، نحو عام ١١٠٠ ق.م، دمروا الكثير من هذا النموذج الأصلى للثقافة اليونانية. وبعد فترة فاصلة من عدة قرون ظهرت الحضارة اليونانية فى مدن اسبارطة التى ينتسب إليها «ليسورجوس» وميليتوس التى ينتسب إليها طاليس، وإفسوس التى ينتسب إليها هرقليطس، ولسبوس التى تنتسب إليها صافو، وأثينا التى ينتسب إليها صولون**. وابتداء من القرن السادس ق.م أخذ الإغريق ينشرون

* ميسينية نسبة إلى مدينة ميسينيا فى منطقة البيلوبونيز التى انطلقت منها الثقافة الميسينية فى أواخر العصر البرونزى (نحو ١٥٨٠ ـ ١١٠٠ ق.م) وتميزت بالمبانى والصناعات.

** ليسورجوس مؤسس دستور اسبارطة نحو نهاية القرن ٩ ق.م، وطاليس أول فيلسوف، أسس الهندسة، وتأثر بالمصريين والساميين، فى القرن ٧ ق.م. وهرقليطس فيلسوف آخر اعتقد فى التغير المستمر للظواهر فى القرن ٦ ق.م. وصافو شاعرة فى القرن ٧ ق.م. وصولون سياسى وشاعر وحكيم ومصلح فى القرن ٦ ق.م.

ثقافتهم عبر البحر المتوسط، ووصلوا مناطق دوراتزو وتارانتو وكروتونا وريجيو وكالابريا وسيراكيوز ونابلي ونيس وموناكو ومرسيليا وملقة. ومن المدن اليونانية في جنوب إيطاليا، ومن ثقافة إتروريا* الأسيوية في الغالب، جاءت حضارة روما القديمة. ومن روما جاءت حضارة أوروبا الغربية. ومن أوروبا الغربية جاءت حضارة أمريكا الشمالية والجنوبية.

وفي القرن الثالث الميلادى وما بعده قامت قبائل سلتية أو تيوتونية أو آسيوية متعددة بتخريب إيطاليا وتدمير الثقافات الكلاسيكية. فالجنوب يبدع الحضارات والشمال يغزوها ويحطمها، ويستعير منها، وينشرها. وهذه إحدى خلاصات التاريخ.

أما محاولات إرجاع الحضارة إلى الجنس بقياس علاقة المخ بالوجه أو الوزن فلم تلق ضوءاً كبيرا على المشكلة. فإذا كان زنوج إفريقيا لم ينتجوا حضارة عظيمة فمن المرجح أن ذلك يرجع إلى أن الظروف المناخية والجغرافية أحبطتهم. وهل كان لجنس من «الأجناس» البيضاء أن يسلك سلوكا أفضل في تلك البيئات؟ من

* إتروريا منطقة بين نهرى آرنو وتيبر كان أقدم سكانها الأتروسكيون الذين أسسوا إمبراطورية بلغت أوجها نحو عام ٥٠٠ ق.م. ويرجح أن تكون لغتهم آسيوية.

الأمور اللافتة للانتباه أن كثيرين من الزنوج الأمريكيين ارتفعوا إلى مراتب عليا في دوائر المهن والفنون والآداب خلال السنوات المائة الأخيرة بالرغم من وجود ألوف العقبات الاجتماعية .

إن دور الجنس في التاريخ تمهيدى أكثر من كونه إبداعيا. فالسلالات المختلفة حين تدخل موضعا معينا من اتجاهات متعددة، في أزمنة متباينة، تخلط دماءها وتقاليدها وأساليبها داخل حدودها أو بما عند الأهالي الموجودين، مثلما يتصل مقداران من الجينات أثناء العملية الجنسية. وهذا الخليط العرقى قد ينتج على مدى قرون نوعاً جديدا، بل شعبا جديدا. وعلى هذا النحو امتزج السلت والرومان والإنجليون والسكسون والجوت Jutes والدانماركيون والنورمان فأنتجوا الإنجليز* . وحين يتشكل النوع الجديد تتفرد مظاهر تعبيره الثقافى، ويشكل حضارة جديدة ــ من حيث الملامح والأسارير والمزاج، والشخصية، واللغة والأدب، والدين، والأخلاق، والفن.

* السلتيون مجموعة شعوب فى غرب أوروبا تضم الفرنسيين الحاليين والبريتونيين والأيرلنديين والاسكتلنديين. والإنجليون Angles قبيلة ألمانية شمالية جاءت انجلترا فى القرن ٥ وأنشأت عدة ممالك فى الجنوب والشرق، ومنها جاء اسم انجلترا أى «أرض الإنجليين». والسكسون قبيلة أخرى من ذات الموطن شاركتها فى غزو انجلترا فى القرنين ٥، ٦. أما الجوت فقبيلة ألمانية جاءت من الجنوب وشاركتهما فى الغزو.

ولكن الذى يصنع الحضارة ليس الجنس، وإنما الحضارة هى التى تصنع الناس. فالظروف الجغرافية والاقتصادية والسياسية تنشئ الثقافة، والثقافة تنشئ النوع البشرى. والإنجليزى لا يصنع الحضارة الإنجليزية بمقدار ما تصنعه هى. وإذا كان يحملها معه إلى حيث ما ذهب، ويرتدى حلة كاملة إذا دعى على العشاء فى تمبوكتو*، فليس ذلك لأنه يخلق حضارته هناك من جديد، وإنما لأنه يعترف فى تلك المدينة النائية بتفوق حضارته على روحه. وعلى المدى الزمنى البعيد تخضع مثل هذه الفروق فى التقاليد أو النوع لتأثير البيئة. فشعوب الشمال تتخذ خصائص شعوب الجنوب، بعد أن تعيش أجيالاً فى المناطق الاستوائية. وأحفاد الشعوب الذين يتربون فى الجنوب يستجيبون لإيقاع الحركة والعقل الأسرع الذى يجدونه فى الشمال.

وإذا نظرنا إلى الحضارة الأمريكية من هذه النقطة لوجدنا أنها ما زالت فى مرحلة اختلاط الأجناس. ففى الفترة من ١٧٠٠ إلى ١٨٤٨ كان الأمريكيون البيض شمال ولاية فلوريدا يتألفون أساسا من الأنجلوسكسون، وكان أدبهم يمثل ازدهارا لانجلترا القديمة

* تمبوكتو مدينة معروفة بجمهورية مالى فى غرب إفريقية، ولكنها هنا فى موقع الإشارة – فى اللغة الإنجليزية – إلى أى مكان بعيد ، فى آخر الدنيا.

على أرض انجلترا الجديدة (نيو إنجلند) وبعد عام ١٨٤٨ فتحت أبواب أمريكا أمام جميع السلالات البيضاء، وبدأ امتزاج عرقى جديد، لن يكتمل بسهولة قبل قرون. فإذا تشكل من هذا الخليط نوع متجانس جديد ستكون لأمريكا لغتها الخاصة (المختلفة عن الإنجليزية اختلاف الاسبانية عن الإيطالية) وسيكون لها أدبها المستقل، وخصائصها المميزة. وهذه كلها أمور فى طريقها إلى الحدوث بالفعل على نحو بارز وعالى النبرة.

إن لألوان العداء «العرقي» بعض الجذور فى الأصول العرقية، ولكن فروق الثقافة المكتسبة ـ من حيث اللغة أو الملبس أو العادات أو الأخلاق أو الدين ـ تولدها أيضا، ربما على نحو غالب. ولا يوجد دواء لمثل هذه الألوان من العداء والكراهية إلا بالتعليم الواسع المدى. فمعرفة التاريخ إنما تعلمنا أن الحضارة نِتاج يقوم على التعاون، وأن جميع الشعوب تقريبا أسهمت فيها. فهى تراثنا وديننا. وسوف تفصح الروح المتحضرة عن نفسها فتعامل كل رجل وامرأة، مهما كانت حقارة شأنهما، معاملة ممثل إحدى هذه الجماعات المبدعة المساهمة.

٥ ـ الشخصية والتاريخ

لا يتأسس المجتمع على المُثل العليا، وإنما على طبيعة الإنسان. فدستور الإنسان يعيد صياغة دساتير الدول. ولكن ما دستور الإنسان؟

لعلنا نُعرِّف الطبيعة البشرية بأنها الميول والمشاعر الأساسية عند البشر. وسوف نطلق على أشد الميول أساسية اسم الغرائز، بالرغم من تسليمنا بأن الكثير من الشك سُلِّط على خاصية كُمونها ووراثتها. ولعلنا نصور الطبيعة البشرية من خلال «جدول عناصر الشخصية» الوارد على الصفحة بعد التالية. وفي هذا التحليل نجد المخلوقات البشرية مجهزة عادة بالطبيعة (التي تعني هنا الوراثة) مع ست غرائز إيجابية وست أخرى سلبية، وظيفتها حفظ الفرد أو الأسرة أو الجماعة أو النوع. وفي الشخصيات الإيجابية تسود الميول الإيجابية، ولكن معظم الأفراد مسلحون بكلتا المجموعتين من الغرائز ـ لمواجهة

تحديات الحياة وفرصها، أو تجنبها (تبعا للمزاج أو الظروف) وتقوم كل غريزة بتوليد العادات، وتصحبها المشاعر. ومن مجموعها تتألف طبيعة الإنسان.

جدول عناصر الشخصية

الغرائز		العادات		المشاعر	
إيجابية	سلبية	إيجابية	سلبية	إيجابية	سلبية
النشاط	النوم	اللعب	الراحة	المرح	التعب
		العمل	الكسل	الطاقة	القصور
		الفضول	اللا مبالاة	الحماسة	السأم
		التحايل	التردد	التساؤل	الشك
		التفكير	الحلم	الانهماك	الفراغ
		الابتكار	التقليد	التصميم	التسليم
		الفن	الفوضى	الشعور بالجمال	الاضطراب
القتال	الفرار	الاقتراب	التراجع	الشجاعة	القلق
		التنافس	التهاون	التخاصم	التواد
		المشاكسة	الجبن	الغضب	الخوف
		السيطرة	الخضوع	الكبرياء	التواضع
التملك	التجنب	الأكل	الرفض	الجوع	القرف
		الادخار	الإنفاق	الطمع	التبذير
		الملكية	الفقر	الاقتناء	التزعزع
الارتباط	الخصوصية	الاتصال	الوحدة	الاجتماعية	التكتم
		طلب	خشية	الغرور	الخجل
		الاستحسان	الاستحسان		
		الكرم	الأنانية	الود	العداء
البحث عن رفيق	الرفض	النشاط الجنسي	الانحراف الجنسي	الخيال الجنسي	العصاب الجنسي
		المغازلة	الخجل	الحب الجنسي	التواضع
رعاية الوالدين	الاعتماد على الأبناء	التدبير المنزلي	عصيان الأبناء	حب الوالدين	كراهية الأبناء

ولكن إلى أى مدى تغيرت الطبيعة البشرية عبر التاريخ؟ من الناحية النظرية لا بد من وقوع بعض التغير. فمن المسلم به أن الانتخاب الطبعى سرى على الاختلافات السيكلوجية والبدنية سواء بسواء. ومع ذلك لا ينبئ التاريخ المعروف عن تغير كثير في سلوك البشر. فقد كان الإغريق في زمن أفلاطون يتصرفون على نحو مشابه جدا للفرنسيين في القرون الحديثة. وكان الرومان يتصرفون مثل الإنجليز. ولكن الوسائل والوسائط تتغير. أما الدوافع والغايات فتظل كما هي، كأن تنشط أو تخلد إلى الراحة، أو تقتني أو تعطى، أو تقتل أو تتراجع، أو تسعى إلى الارتباط أو الخصوصية، أو تبحث عن رفيق أو ترفض الرفقة، أو تبذل رعاية الوالدين أو تكرهها. كما أن الطبيعة البشرية لا تتغير من طبقة إلى أخرى، فعلى العموم نجد أن الفقراء لديهم ذات الدوافع التي لدى الأغنياء مع فارق واحد هو أن فرصتهم أو مهارتهم تكون من الضآلة بحيث لا تمكنهم من تحقيق هذه الدوافع. ولا يوجد في التاريخ أوضح من اتخاذ الثائرين الناجحين ذات الطُرق التي درجوا على إدانتها عند القوى المطاح بها.

كان التطور في الإنسان أثناء الزمن المسجل اجتماعيا لا بيولوجيا. فهو لم يجر بتنويعات وراثية في الجنس البشرى، وإنما جرى في الغالب عن طريق الابتكار الاقتصادى والسياسي والثقافي

والأخلاقي. وانتقل هذا الابتكار إلى الأفراد والأجيال عن طريق التقليد أو العرف أو التعليم. فالعرف والتقليد داخل الجماعة يماثلان النمط والوراثة في الجنس البشرى، والغرائز في الفرد. وهما يعدان أداتين جاهزتين للتكيف مع المواقف النمطية والمتكررة كثيرا. ومع ذلك تنشأ مواقف جديدة، فتتطلب استجابات جديدة وغير جامدة. ومن ثمة يتطلب التطور في الكائنات الحية العليا قدرة على التجريب والابتكار ـ وهما المعادلان الاجتماعيان للتنويع والتدجين. فالتطور الاجتماعي ما هو إلا تفاعل العرف مع التجديد.

وهنا يستعيد الفرد صاحب المبادرة ـ «الرجل العظيم» أو «البطل» أو «العبقرى» ـ مكانته كقوة فعالة في التاريخ. وهو لا يشبه تماما ذلك الإله الذى وصفه كارلايل*، وإنما هو ينمو خارج عصره ووطنه، ويكون نتاجا للأحداث ورمزا لها، مثلما يكون أداتها وصوتها. وبدون وجود موقف يتطلب استجابة جديدة تصبح أفكاره غير ملائمة وغير عملية. أما إذا كان بطلا فعالاً فإن مطالب وضعه، وتضخيم الأزمة، تطوره وتضخمه حتى يصل إلى منزلة وسلطات

* توماس كارلايل (١٧٩٥ ـ ١٨٨١) أديب ومفكر ومؤرخ إنجليزى كان يعتقد أن فهم الكون يستعصى على الإنسان، لأن خالقه لم يهيئه إلا للتواضع. ومع ذلك قال إن المسيح لو عاد اليوم لما صلبه الناس، بل لدعوه إلى العشاء وسمعوا أخباره، وسخروا منها.

كان من الممكن فى الأوقات العادية أن تظل كامنة ومسدودة. ولكنه ليس مجرد أثر ومعلول. فالأحداث تقع من خلاله ومن حوله سواء بسواء. وأفكاره وقراراته تدخل مجرى التاريخ بقوة. وقد تساوى بلاغته أحيانا، كما فى حالة تشرشل، ألف فرقة عسكرية. وقد تكسب بصيرته فى الاستراتيجية والتكتيك، كما فى حالة نابليون، المعارك والحملات الحربية، وتؤسس الدول. وإذا كان نبيا مثل محمد، حكيما في وسائل إلهام الناس، رفعت كلماته شعبا فقيرا محروما إلى طموحات لم تدر فى ذهن أحد، وقوة مدهشة. وليس باستير، ومورس، وإديسون، وفورد، ورايت، وماركس، ولينين، وماوتسى تونج*، إلا معلولات لعلل بغير حصر، وعلل لمعلولات بغير نهاية.

وإذا نظرنا فى جدول عناصر الشخصية لتبينا أن التقليد ضد الابتكار، ولكنه يتعاون معه بطرق نشطة. فعلى نحو ما تتحد الطبائع الخاضعة مع الأفراد المسيطرين فى سبيل إقامة نظام المجتمع وتسييره،

* باستير (١٨٢٢ ـ ٩٥) كيماوى وبكتريولوجي فرنسى صاحب نظرية الميكروب والتعقيم. ومورس (١٧٩١ ـ ١٨٧٢) رسام أمريكى اكتشف التلغراف الكهربائى. وإديسون (١٨٤٧ ـ ١٩٣١) مخترع أمريكى اكتشف التليفون والفونوغراف والمصباح الكهربائى. وفورد (١٨٦٣ ـ ١٩٤٧) أول صانع للسيارات الشعبية فى أمريكا. ورايت (١٨٦٩ ـ ١٩٥٩) مهندس معمارى أمريكى طور العمارة الأمريكية.

تتبع الأغلبية المقلدة الأقلية المبتكرة، وتتبع الأخيرة الفرد المجدد، فى تهيئة استجابات جديدة لمطالب البيئة أو البقاء. فالتاريخ فى عمومه هو صراع الأقليات. والأغلبية تصفق للمنتصر، وتقدم المادة البشرية للتجربة الاجتماعية.

العقل إذن قوة فعالة فى التاريخ، ولكنه يمكن أن يكون أيضا قوة تذويب وتدمير. فمن بين كل مائة فكرة جديدة قد تصبح تسع وتسعون منها أو أكثر ثانوية فى نظر الاستجابات التقليدية التى نشأت لتحل محلها. ولا يمكن لإنسان واحد، مهما كان عبقريا أو عالما، أن يصل فى حياته إلى درجة اكتمال الفهم التى تتيح له الحكم المضمون على عادات المجتمع أو مؤسساته ورفضها، لأن هذه العادات والمؤسسات تمثل حكمة الأجيال بعد قرون من التجريب فى معمل التاريخ. فالشاب الذى يغلى بالهورمونات سيتساءل عما يعوقه عن إطلاق العنان لرغباته الجنسية. فإذا لم يصده العرف، أو الأخلاق، أو القوانين، فقد يدمر حياته قبل بلوغه النضج الذى يمكنه من فهم أن الجنس نهر من النار يجب أن تقام له السدود، ويهدأ بمئات القيود، إذا أردنا له ألا يستهلك ــ بطريقة فوضوية ــ الفرد والجماعة على السواء.

وهكذا يعد الشخص المحافظ الذى يقاوم التغيير شخصاً مفيداً بمقدار ما يفيد الشخص المتطرف الذى يقترح التغيير ـ وقد يكون أكثر فائدة على نحو ما تكون الجذور أكثر حيوية وأهمية من نباتات التطعيم. ومن الخير أن نسمع للأفكار الجديدة من أجل القلة التى يمكن استخدامها. ولكن من الخير أيضا أن نجبر الأفكار الجديدة على المرور بطاحونة الاعتراض والمعارضة والتسفيه. وهذا هو السباق التمهيدى للغربلة الذى يجب أن تنجح فيه الابتكارات قبل السماح لها بدخول السباق البشرى. فمن الخير أن يقاوم الشيوخ الشباب، وأن ينخس الشباب الشيوخ. ومن هذا التوتر ـ كما فى صراع الجنسين والطبقات ـ تخرج مقاومة جذب مبدعة، وتطور منبه، ووحدة سرية أساسية، وحركة للكل.

٦ ـ الأخلاق والتاريخ

الأخلاق هي القواعد التي يستخدمها المجتمع (مثلما يستخدم القوانين بصفتها قواعد ملزمة) في حض أفراده وجمعياته على السلوك المنسجم مع نظامه وأمنه ونموه. وبهذه الصورة حافظت التجمعات اليهودية داخل العالم المسيحي على استمرارها وسلامها الداخلي عن طريق قانون أخلاقي صارم ومفصل، دون أي عون تقريبا من الدولة وقوانينها.

وتؤكد المعرفة المحدودة بالتاريخ طابع التغير الذي يسود القوانين الأخلاقية، وتنتهي إلى أنها تتعرض للإهمال، لأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان، ويناقض بعضها البعض أحيانا. ولكن المعرفة الأوسع تؤكد عمومية القوانين الأخلاقية، وتنتهي إلى ضرورتها.

تختلف القوانين الأخلاقية لأنها تتكيف مع الظروف التاريخية والبيئية. فإذا قسمنا التاريخ الاقتصادي إلى ثلاث مراحل ـ الصيد

والزراعة والصناعة ـ لتوقعنا أن يتغير القانون الأخلاقي لمرحلة من هذه المراحل الثلاث في المرحلة التالية. ففي مرحلة الصيد صار على الإنسان أن يكون مستعداً للمطاردة والقتال والقتل. وحين يمسك بفريسته يأكل حتى يملأ معدته إلى أقصى سعتها، لأنه لم يكن على ثقة من أنه سيأكل مرة أخرى. وهكذا يكون غياب الأمان أُمّ الشره، مثلما تعد القسوة ذكرى زمان ـ ولو في الدم ـ كان فيه مقياس البقاء (كما هي الحال اليوم بين الدول) يمثل القدرة على القتل. وأغلب الظن أن معدل الموت بين الرجال ـ الذين درجوا على المخاطرة بحياتهم في الصيد في معظم الأحوال ـ كان أعلى من نظيره بين النساء. وكان على بعض الرجال أن يتخذوا عدة نساء، وكان ينتظر من كل رجل أن يساعد النساء على تعدد الحمل. وكانت المشاكسة، والقسوة، والشره، والرغبة الجنسية، مزايا في الصراع من أجل البقاء. ومن المحتمل أن كل رذيلة كانت ذات يوم فضيلة ـ أي سجية تعمل على بقاء الفرد، أو الأسرة، أو الجماعة. ولعل خطايا الإنسان أن تكون آثار صعوده لا علامة سقوطه.

والتاريخ لا يروى لنا متى انتقل البشر، على وجه الدقة، من الصيد إلى الزراعة ـ وربما كان ذلك في العصر الحجري الحديث، ومن خلال اكتشاف أن الحبوب يمكن بذرها لتحسين النمو

التلقائي في القمح البرى. ولعلنا نفترض على نحو حصيف أن هذا النظام الجديد تطلّب فضائل جديدة، وحوّل بعض الفضائل القديمة إلى رذائل. فصار الاجتهاد أهم من الشجاعة، والانضباط والاقتصاد أربح من العنف، والسلام أنصر من الحرب. وأصبح الأطفال منافع اقتصادية. وبذا صار تحديد النسل عملاً غير أخلاقي. وكانت الأسرة في المزرعة وحدة الإنتاج في ظل انضباط الأب والفصول، وكان للسلطة الأبوية أساس اقتصادي حازم. وكان كل ابن طبعي ينضج بسرعة في عقله وإعالة نفسه. ففي سن الخامسة عشرة كان يفهم الواجبات البدنية في الحياة مثلما يفهمها أيضا في سن الأربعين. وكان كل ما يحتاجه هو قطعة أرض ومحراث وذراع مستعدة. ولذلك كان يتزوج في سن مبكرة، فور أن ترغب الطبيعة تقريبا. فهو لم يكن يبلى طويلا في ظل الموانع التي فرضها النظام الجديد للبيوت والمستوطنات الدائمة على العلاقات السابقة على نظام الزواج. أما بالنسبة للفتيات فقد كانت العفة لا غنى عنها حتى لا يؤدى فقدانها إلى أمومة غير محمية. وتطلبت المساواة العددية تقريبا بين الجنسين نظام الزواج بواحدة. وظل هذا القانون الأخلاقي الزراعي في كبح النفس، والزواج المبكر، والاكتفاء بواحدة بغير طلاق، والأمومة المتعددة، مرعيا طوال خمسة عشر قرنا

فى أوروبا المسيحية ومستعمراتها البيضاء. وقد كان قانونا قاسيا، أنتج بعض أقوى الشخصيات فى التاريخ.

ثم غيرت الثورة الصناعية ـ تدريجيا ثم بسرعة ثم على نطاق واسع ـ الشكل الاقتصادى والبنية الفوقية الأخلاقية للحياة الأوروبية والأمريكية. وترك الرجال والنساء والأطفال بيوتهم وأسرهم وسلطتهم ووحدتهم كى يعملوا كأفراد، ويتقاضوا أجورهم كأفراد، فى مصانع أقيمت لإيواء الآلات لا البشر. وكانت الآلات تتكاثر فى كل حقبة، وتصبح أكثر تعقيدا، ثم ظهر فيما بعد النضج الاقتصادى (القدرة على إعالة الأسرة) ولم يعد الأطفال منافع اقتصادية، وتأخرت سن الزواج، وأصبح من الصعب المحافظة على كبح النفس السابق على نظام الزواج. وصارت المدينة تقدم كل صنوف الإحباط للزواج، ولكنها أتاحت كل حافز وتسهيل للجنس. و«تحررت» النساء ـ أى تم تصنيعهن. ومكنتهن موانع الحمل من فصل ممارسة الجنس عن الحمل. وفقدت سلطة الأب والأم أساسها الاقتصادى من خلال الفردية المتزايدة للصناعة. ولم يعد الشاب المتمرد يشعر بالكبح الذى كانت تفرضه عليه عملية المراقبة فى القرية. فأصبح فى استطاعته إخفاء خطاياه فى إغفال الأسماء الواقى داخل زحام المدينة. وأعلى تقدم العلم سلطة أنبوب

الاختبار على سلطة صولجان الأسقف. وأوحت ميكنة الإنتاج الاقتصادى بفلسفات ميكانيكية مادية، ونشر التعليم الشكوك الدينية، وازداد فقدان الأخلاق لدعامات الخوارق. وبذلك بدأ القانون الأخلاقى الزراعى القديم فى الموت.

وفى زمننا هذا، كما فى زمن سقراط (مات عام ٣٩٩ق.م) وأغسطس (مات عام ١٤) زادت الحرب فى القوى التى تعمل على انحلال الأخلاق. فبعد العنف والتمزق الاجتماعى اللذين صاحبا حرب البيلوبونيز استباح ألقبيادس* لنفسه الهزؤ بقانون أجداده الأخلاقى، وأعلن ثراسيماخوس** أن القوة هى الحق الوحيد. وبعد حروب ماريوس وسولا وقيصر وبومبى ***، وأنطونى وأوكتافيوس، صارت «روما حافلة بالبشر الذين فقدوا مكانتهم

* ألقبيادس (٤٥٠ ـ ٤٠٤ ق.م) سياسى ومقاتل صديق لسقراط. قتل بإحدى المعارك.

** ثراسيماخوس (نحو أواخر القرن ٥ ق.م) فيلسوف سوفسطائى جرىء كان يرى أن الحق مع الأقوى أو الأفضل.

*** كايوس ماريوس (١٥٥ ـ ٨٦ ق.م) قائد رومانى طرده سولا (١٣٨ ـ ٧٨ق.م) من منصبه كقنصل، فعاد إلى روما واستولى عليها بالقوة، حتى أطاح به سولا الذى تولى الحكم فترة حتى استقال وانزوى. أما بومبى (١٠٦ ـ ٤٨ ق.م) فقد انتهى نزاعه مع قيصر إلى حرب أهلية وهزيمته.

الاقتصادية واستقرارهم الأخلاقي: جنود ذاقوا المغامرة وتعلموا كيف يقتلون، ومواطنون رأوا مدخراتهم تستهلكها الضرائب والتضخم المالي الذي نتج عن الحرب، ... ونساء دارت رءوسهن من الحرية وتعدد الطلاق والإجهاض والزنا... وراحت حالة من الدراية الضحلة بالدنيا تتفاخر بتشاؤمها وشكها في الخير»[١٥] وهذه هي تقريبا صورة المدن الأوروبية والأمريكية بعد حربين عالميتين.

التاريخ يقدم بعض العزاء حين يذكرنا بأن الخطيئة ازدهرت في كل عصر. بل إن جيلنا هذا لم يبارِ بعد ذيوع الشذوذ الجنسي في اليونان القديمة، أو روما، أو إيطاليا في عصر النهضة. فقد طلب أرِتينو* من دوق مانتوا أن يرسل إليه غلاماً جميلاً، وقال له: «إن أنصار المذهب الإنساني كتبوا عنه (الشذوذ الجنسي) بنوع من التعاطف العلمي، ورأى أريوستو** أنهم جميعا مدمنون له»[١٦] وكان البغاء دائما وعالميا، ابتداء من المباغي التي نظمتها الدولة في آشور[١٧] إلى «الأندية الليلية» في المدن الأوروبية الغربية والأمريكية

---

* بيترو أريتينو (ليس أرتينو كما ورد خطأ في النص) Aretino من مؤلفي عصر النهضة في القرن ١٦.

** لودوفيكو أريوستو (١٤٧٤ ــ ١٥٣٣) من أشهر شعراء إيطاليا في عصر النهضة.

الراهنة. وقد حدث في جامعة فيتنبرج عام ١٥٤٤ ـ كما كتب لوثر* ـ أن «ازدادت ملاحقة الفتيات، وهن يجرين وراء الفتيان، ويدخلن قاعاتهم وغرف نومهم، وحيث يجدنهم، ويعرضن عليهم الحب المجاني»[١٨] ويروى لنا مونتاني** أن الأدب المكشوف في عصره (١٥٣٣ ـ ٩٢) وجد سوقا جاهزة[١٩]. ويختلف الفجور على مسارحنا، في النوع لا في الدرجة، عن نظيره في عصر عودة الملكية بانجلترا. وقد كان كتاب «مذكرات إحدى بنات الهوى» الذى ألفه جون كليلاند – وهو سلسلة حقيقية من الاتصال الجنسي – ذائعا عام ١٧٤٩ مثل ذيوعه عام ١٩٦٥[٢٠]. وقد لاحظنا اكتشاف النرد في الحفريات التي تمت قرب موقع مدينة نينوى.[٢١] فقد مارس الرجال والنساء القمار في كل عصر وفي كل عصر أيضا ظهر بشر غير شرفاء وحكومات فاسدة وربما كانوا أقل اليوم مما كانوا عليه في الماضي عموما. وكان أدب الكتيبات الذى ظهر في القرن ١٦ في أوروبا «يئن من التحذير ضد الغش الشامل للطعام وغيره من المنتجات»[٢٢]. فالإنسان لم يروض نفسه

* مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) زعيم حركة الإصلاح الديني البروتستنتي في ألمانيا. كان أستاذا بالجامعة المذكورة.

** ميشيل دى مونتاني (١٥٣٣ ـ ٩٢) كاتب فرنسي اشتهر بمقالاته التي تعد أول نموذج لفن المقالة الحديث.

أبدا على الوصايا العشر. وقد رأينا نظرة فولتير إلى التاريخ على أنه يتكون أساساً من «مجموعة من الجرائم، والحماقات، والبلايا» التى ارتكبها البشر(٢٣)، كما رأينا صدى هذا الملخص عند جيبون*(٢٤).

ولا بد من أن نذكر أنفسنا مرة أخرى بأن التاريخ كما يكتب عادة (بطريقة خاطئة Peccavimus) مختلف جدا عن التاريخ كما يقع عادة. فالمؤرخ يسجل غير العادي لأنه طريف - أى لأنه غير عادى. ولو كان جميع أولئك الأفراد الذين لم يعرفوا نموذجا لبوزويل** وجدوا مكانهم المتناسب مع عددهم على صفحات المؤرخين لتوافرت لدينا دراسة عن الماضى وعن الإنسان أكثر إملالاً، ولكن أكثر إنصافا. فوراء الواجهة الحمراء للحرب والسياسة، والبلوى والفقر، والزنا والطلاق، والقتل والانتحار، عاشت الملايين من البيوت المرتبة، والزيجات المخلصة، والرجال والنساء المملوءات عطفا وحنانا، القلقون على أطفالهم والسعداء بهم. بل إننا نجد فى

* إدوارد جيبون (١٣٧ ـ ٩٤) مؤرخ إنجليزى اشتهر بكتابه «انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها».

** جيمس بوزويل (١٧٤٠ ـ ٩٥) كاتب انجليزى اشتهر بالسيرة الدقيقة التى كتبها للأديب والعالم اللغوى الدكتور جونسون. وفيها ظهر أثر ملازمته ومعايشته لصديقه.

التاريخ المسجل الكثير جدا من أمثلة الصلاح، بل النبل، بحيث نستطيع أن نغفر الخطايا، وإن كنا لا ننساها. فعطايا الخير والإحسان تساوت تقريبا مع ألوان وحشية ساحات القتال والسجون. وكم من المرات، حتى في الحكايات السريعة التى رويناها، رأينا البشر يساعد بعضهم البعض ـ فهذا فارينيللى يعول أطفال دومينيكو سكارلاتى، والغواصون يسعفون هايدن في شبابه، والكونت ليتا يسدد نفقات دراسة جون كريستيان باخ في جامعة بولونيا، وجوزيف بلاك يقدم العرابين المالية أكثر من مرة لجيمس واط، وبوتشبرج يقرض المال لموزارت المرة تلو المرة في صبر وأناة*. فمن ذا سيجرؤ على كتابة تاريخ عمل الخير عند البشر؟

وهكذا، لا يمكن أن نتأكد من أن الانحلال الأخلاقى فى عصرنا نذير فساد وليس انتقالا مؤلماً، أو ساراً، من قانون أخلاقى فقد أسسه الزراعية، إلى قانون أخلاقى آخر يجب على حضارتنا الصناعية أن تصوغه داخل النظام الاجتماعى والحالة السوية للمجتمع. ولكن التاريخ يؤكد لنا فى الوقت عينه أن الحضارات تتحلل على مهل.

* هذه روايات فصلها المؤلفان فى «قصة الحضارة». وسكارلاتى (١٦٥٩ ـ ١٧٢٥) موسيقى إيطالى مشهور، وكذلك الألمان هايدن وباخ وموزارت. أما واط (١٧٣٦ ـ ١٨١٩) فمخترع الآلة البخارية.

فطوال ٢٥٠ سنة بعد بداية الضعف الأخلاقى فى اليونان، مع ظهور السوفسطائيين، استمرت الحضارة الإغريقية فى إنتاج روائع من الأدب والفن. وقد بدأت الأخلاق الرومانية فى «الفساد» عقب دخول اليونانيين المهزومين إيطاليا (عام ١٤٦ ق.م) ولكن روما استمرت فى التمتع بساسة وفلاسفة وشعراء وفنانين كبار حتى وفاة ماركوس أوريليوس (عام ١٨٠) وكانت روما من الناحية السياسية فى الدرك الأسفل عند تولية قيصر (عام ٦٠ ق.م) ومع ذلك لم تسقط تماما فى أيدى البرابرة حتى عام ٤٦٥م. فهل ترانا نستغرق مثل هذا الزمن الطويل كما حدث لروما القيصرية!.

لعل الانضباط يعود إلى حضارتنا من خلال التدريب العسكرى الذى تتطلبه تحديات الحرب. فحرية الجزء تتفاوت بتفاوت أمن الكل. وسوف تختفى الفردية من أمريكا وانجلترا عندما تتوقف الحماية الجغرافية. وقد تداوى الإباحة الجنسية نفسها من خلال إفراطها ذاته. وقد يعيش أطفالنا الذين تحرروا من المراسى حتى يروا سيادة النظام والتواضع. فارتداء الملابس سيكون أكثر إغراء من العرى. ولكن الكثير من حريتنا الأخلاقية يعد خيراً فى الوقت ذاته. فمن الخير أن نتخفف من ألوان الإرهاب اللاهوتى، وأن نستمتع ـ دون خوف ـ بالمباهج التى لا تؤذى الغير ولا تؤذينا، وأن نشعر بنكهة الهواء الطلق على أجسامنا المحــرَّرَة.

٧ ـ الدين والتاريخ

حتى المؤرخ الشاك يبدى احتراما متواضعا للدين ، لأنه يراه مؤديا وظيفته، ولا غنى عنه على ما يظهر، فى كل مصرٍ وعصر. فقد أنزل الدين على الشقى والمعذب والمحروم والمسن ألواناً من السلوى الخارقة التى تعدها ملايين النفوس أثمن من أى عون طبعى. وهو قد ساعد الآباء والمعلمين على تهذيب الصغار. وجعل لأدنى أنواع الوجود معنى وكرامة، وسعى من خلال القرابين إلى الاستقرار، عن طريق تحويل المواثيق البشرية إلى علاقات مقدسة بالله. ونأى بالفقراء (كما قال نابليون) عن قتل الأغنياء. فنظراً لأن عدم المساواة الطبعى بين البشر يكتب على كثير منا الفقر أو الهزيمة، يكون بعض الأمل الخارق البديل الوحيد لليأس. وإذا قضينا على ذلك الأمل تفاقمت حرب الطبقات. وما الجنة واليوتوبيا إلا دلوين فى بئر : حين ينزل أحدهما يصعد الآخر. وإذا سقط الدين نمت الشيوعية.

ويبدو الدين لأول وهلة مقطوع الصلة بالأخلاق. ويبدو (لأننا نخمن لا أكثر، أو نردد ما قاله بترونيوس* الذى ردد ما قاله لوكريشيوس) أن «الخوف هو الذى خلق الآلهة فى البداية»(٢٥) ـ الخوف من القوى المخبوءة فى الأرض والأنهار والمحيطات والأشجار والرياح والسماء. وهكذا صار الدين العبادة الاستعطافية لهذه القوى عن طريق القرابين والتضحية والتعاويذ والصلاة، ولم يصبح الدين قوة فعالة، ومنافسا للدولة، إلا حين استخدم الكهنة هذه المخاوف والشعائر فى تدعيم الأخلاق والقانون. فقد قال الدين للناس إن القانون المحلى للأخلاق والشرائع أملته الآلهة. وصور الإله توت وهو يقدم للملك مينيس القوانين لمصر، والإله شَمَش وهو يقدم للملك حمورابى قانونا لبابل، والإله يهوه وهو يقدم الوصايا العشر و٦١٣ من التعاليم لموسى من أجل اليهود، والحورية المقدسة إيجيريا وهى تقدم لنوما بومبليوس القوانين لروما. وقد أعلنت العبادات الوثنية والعقائد المسيحية أن الحكام الدنيويين تعينهم الآلهة وتحميهم. واقتسمت جميع الدول تقريبا، وبامتنان، أراضيها ودخولها المالية مع الكهنة.

* بترونيوس (القرن الأول الميلادى) أديب رومانى له رواية «ساتيركون» الهجائية. أما لوكريشيوس (٩٨ ـ ٥٥ ق.م) فشاعر رومانى جن من الحب. وانتحر تاركا قصيدة مطولة زاخرة بالفلسفة والعلوم.

وقد شك بعض الرافضين فى قيام الدين بنشر الأخلاق فى جميع العصور، وبنوا شكهم على أن الانحلال الأخلاقى ازدهر حتى فى عصور السيطرة الدينية. ولا شك أن الفسوق والسُّكر والفظاظة والطمع والكذب والسرقة والعنف شهدتها العصور الوسطى. ولكن كان من المحتمل أن تكون الفوضى الأخلاقية التى نتجت عن خمسة قرون من الغزو البربرى والحرب والدمار الاقتصادى والتفكك السياسى أسوأ كثيرا مما كانت عليه لولا التأثير الاعتدالى للأخلاق المسيحية، والتحذيرات الكهنوتية، والمواعظ الورعة، والشعائر المهدئة الموحدة. وقد عملت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية على تقليل الرق، والضغائن الأسرية، والنزاع الوطنى، ومدّ فترات الهدنة والصلح، وإحلال أحكام المحاكم المعترف بها محل المحاكمة بالقتل أو التعذيب. وخففت العقوبات التى فرضها القانون الرومانى أو البربرى، ووسعت ـ إلى درجة كبيرة ـ مجال عمل الخير وتنظيمه.

ومع أن الكنيسة خدمت الدولة فقد ادعت أنها تقف فوق جميع الدول، مثلما يجب أن تقف الأخلاق فوق السلطة. وعلمت الناس أن الوطنية، التى لا يكبحها ولاء أعلى، يمكن أن تكون أداة للطمع والجريمة. ونشرت قانوناً أخلاقيا واحدا شاملا لجميع الحكومات فى

العالم المسيحى. ونظراً لأنها زعمت لنفسها الأصل المقدس والسيطرة الروحية فقد تطوعت بالقيام بدور المحكمة التى يسأل أمامها من الناحية الأخلاقية جميع الحكام. وقد اعترف الإمبراطور هنرى الرابع بهذا الزعم فأعلن خضوعه للبابا جريجورى السابع مدينة كانوصا (عام ١٠٧٧) وبعد قرن من الزمان رفع البابا إ.سنت الثالث سلطة البابوية ومكانتها إلى درجة تحقق عندها المثل الأعلى لجريجورى فى تأسيس دولة عظمى أخلاقية.

غير أن الحلم المهيب تحطم تحت ضربات النزعة الوطنية والشك والضعف الإنسانى. وسيطر على الكنيسة رجال أثبتوا فى أحوال كثيرة أنهم متحيزون أو مرتشون أو مبتزون. فقد كبرت ثروة فرنسا وقوتها، وجعلت البابوية أداتها السياسية. وصار الملوك من القوة بحيث يجبرون أحد البابوات على حلّ الطريقة اليسوعية التى سبق أن ساندت البابوات مساندة شديدة الولاء. وانحطت الكنيسة إلى درجة النصب والاحتيال عن طريق الأساطير الكاذبة، والتذكارات المقدسة الزائفة، والمعجزات المريبة. وأخذت تربح طوال قرون من وراء «هبة قسطنطين*» التى زعمت توريث أوروبا الغربية إلى البابا

* نسبة إلى الإمبراطور الرومانى قسطنطين الأول (٢٨٠ ـ ٣٣٧) الذى أعاد بناء بيزنطة وسماها باسمه.

سيلفستر الأول (تولى ٣١٤ ـ ٣٣٥) ومن «الفتاوى البابوية المزيفة» (نحو عام ٨٤٢) التى اخترعت سلسلة من الوثائق لإضفاء طابع القدم المقدس على العصمة البابوية[٢٦]. وازداد استهلاك الهيئة الكهنوتية لطاقاتها فى نشر الأصولية لا الأخلاقية، ثم ألحقت محاكم التحقيق بالكنيسة عاراً يكاد يكون قاتلا. وحتى حين كانت الكنيسة تدعو الناس إلى السلام راحت تثير الحروب الدينية فى فرنسا خلال القرن ١٦، وحرب السنوات الثلاثين فى ألمانيا خلال القرن ١٧. ولم تقم بدور معتدل إلا فى التقدم البارز الذى حققته الأخلاق الحديثة ـ وهو إلغاء الرق. وسمحت للفلاسفة بقيادة الحركات الإنسانية النزعة التى لطفت شرور عصرنا.

لقد بَرَّأ التاريخ الكنيسة من عقيدة أن جماهير البشر ترغب فى دين غنى بالمعجزات والأسرار والأساطير. وسمح ببعض التعديلات الصغيرة فى الشعائر، والملابس الكهنوتية، والسلطة الأسقفية. ولكن الكنيسة لا تجرؤ على تغيير المبادئ التى يهزأ بها العقل، لأن مثل هذا التغيير قد يسىء إلى الملايين التى ارتبطت آمالها بالتخيلات الموحية والمعزية، ويحررها من الأوهام. وليس من الممكن تحقيق أى وفاق بين الدين والفلسفة إلا عن طريق اعتراف الفلاسفة بأنهم لم يجدوا بدلا للوظيفة الأخلاقية التى تؤديها الكنيسة، وكذلك اعتراف رجال الكهنوت بالحرية الدينية والعقلية.

ولكن، هل يؤيد التاريخ الإيمان بالله؟

إذا كنا لا نقصد بالله الفعالية المبدعة للطبيعة، وإنما الكائن الأسمى الذكى الخيِّر، فلا بد أن يكون الجواب نفيا مانعاً. فالتاريخ، مثله مثل أقسام البيولوجيا الأخرى، يظل فى أعماقه انتخابا طبعيا لأصلح الأفراد والجماعات فى صراع لا يتلقى فيه الخير أى تأييد، فى حين تسوده البلايا، ويكون المقياس النهائى فيه هو القدرة على البقاء. وإذا أضفنا إلى الجرائم والحروب وفظائع الإنسان الزلازل، والعواصف والأعاصير، والأوبئة، والأمواج العارمة، وغير ذلك من «أعمال الله» Acts of God التى تدمر ــ بانتظام ــ حياة الإنسان والحيوان، لأوحى مجموع الأدلة بقضاء وقدر أعمى أو غير متحيز، مصحوب بمشاهد طارئة وبيِّنة العرضية والمصادفة، نعزو إليه النظام أو الأبهة أو الجمال أو الجلال. فإذا أيد التاريخ أى لاهوت فسيكون ذلك ثنوية Dualism كما فى الزرادشتية والمانوية*، حيث نجد روحا خيرة وروحا شريرة تتقاتلان على التحكم فى الكون وأرواح البشر. وقد أكدت هاتان العقيدتان لأتباعهما، كما أكَّدَت المسيحية

* الزرادشتية نسبة إلى زرادشت الفارسى الذى ظهر فى القرن ٦ ق.م، وكان مبدأ الثنوية من أسس دعوته. أما المانوية فنسبة إلى مانى الفارسى أيضا الذى ظهر فى القرن الثالث الميلادى، وكان يدعو إلى الثنوية أيضا، متأثرا بالمسيحية والوثنية معا.

(التي هي في أساسها مانوية) أن الروح الخيرة ستنتصر في النهاية. ولكن التاريخ لا يقدم لهذا النوع من الاكتمال ضمانة. فالتاريخ والطبيعة لا يسلّمان بمفاهيمنا عن الخير والشر. وهما يعرفان الخير بأنه ما يبقى، والشر بأنه ما ينزل إلى أسفل. وليس للكون أي هوى في صف المسيح وضد جنكيز خان.

لقد أدى الإدراك المتزايد لموقع الإنسان المحدود جدا في الكون إلى تعزيز ضعف الإيمان الديني. ولعلنا في العالم المسيحي نؤرخ لبداية الانحطاط بكوبر نيكوس* (عام ١٥٤٣) ولكن كان جون دون** يتفجع على أن الأرض أصبحت مجرد «ضاحية» من ضواحي العالم، وأن «الفلسفة الجديدة تدعو إلى الشك في كل شئ». ثم جاء فرنسيس بيكون*** الذي كان يبدى ـ من وقت لآخر ـ احترامه للدين، فأعلن أن العلم دين الإنسان الحديث بعد تحرره. وفي ذلك الجيل بدأت فكرة «موت الإله» كمعبود خارجي.

---

* كوبرنيكوس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) الفلكي البولندي الذي هز الثقة في أن الأرض مركز الكون، وأنها ـ كما جاء في الأناجيل ـ ثابتة لا تدور.

** جون دون (١٥٧٢ ـ ١٦٣١) شاعر إنجليزي غلب على شعره التصوف والغموض.

*** فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) عالم إنجليزي وفيلسوف كانت له آراء متطرفة في عصره.

وكان تأثير ذلك من الكبر بحيث تَطلّب أسبابا كثيرة إلى جوار انتشار العلم والمعرفة بالتاريخ. فأولا، نجد حركة الإصلاح البروتستنتى التى دافعت فى الأصل عن الاجتهاد الشخصى. ثم نجد حشد الفرق البروتستنتية ومدارس اللاهوت المتناقضة، التى راح كل منها يحتكم إلى الأناجيل والعقل على السواء. ثم نجد النقد العالى للكتاب المقدس، ونشر تلك المجموعة المدهشة من الكتب على أنها العمل الناقص للبشر غير المعصومين. ثم نجد الحركة القائلة بمذهب الربوبية فى انجلترا، التى أنزلت الدين إلى إيمان غامض بإله يصعب تمييزه عن الطبيعة. ثم نجد تزايد التعرف على الأديان الأخرى التى كانت أساطيرها ـ كثير منها يرجع إلى ما قبل المسيحية ـ شبيهة على نحو مؤلم بالأسس التى يفترض أنها مبنية على حقائق فى عقيدتنا الموروثة. ثم نجد فضح البروتستانت للمعجزات الكاثوليكية، وفضح الربّانيين للمعجزات الإنجيلية، والفضح العام للتدليس والاحتيال ومحاكم التحقيق والمذابح فى تاريخ الدين. ثم نجد دور الزراعة ـ التى حركت فى الناس الإيمان عن طريق التجدد السنوى للحياة وسر النمو ـ فحلت محلها الصناعة، وراحت تطن كل يوم بسلسلة من الابتهالات للآلات، موحية بعالم كله آلات. أضف إلى هذا فى الوقت ذاته التقدمَ الجرىءَ فى البحث العلمى

القائم على الشك كما عند بايل* Bayle ، وفى الفلسفة القائلة بوحدة الوجود كما عند سبينوزا. ثم يأتى الهجوم الضخم الذى شنته حركة التنوير الفرنسية على المسيحية. ثم ثورة باريس على الكنيسة أثناء الثورة الفرنسية. أضف إلى هذا أيضا فى عصرنا القتل العشوائى للأهالى المدنيين فى الحرب الحديثة. وأخيرا تأتى الانتصارات الرهيبة التى حققتها التكنولوجيا العلمية، وبها تعد الإنسان بالقدرة الكلية والدمار، وتتحدى الهيمنة الإلهية على السموات.

بطريقة ما حاربت المسيحية نفسها عندما غرست فى كثير من المسيحيين حسا أخلاقيا لم يعد يستسيغ تلك الصورة التى رسمها اللاهوت التقليدى لله كتواق للانتقام. وقد اختفت فكرة الجحيم من الفكر المتعلم، بل من المواعظ الدينية على منابر الكنيسة. وأصبح أتباع الكنيسة المشيخية** Presbyterian يخجلون من الاعتراف المعمول به فى كنيسة وستمنستر، وهو اعتراف كان يغريهم بالإيمان بإله خلق بلايين من الرجال والنساء، برغم علمه

---

* بيير بايل (١٦٤٧ ـ ١٧٠٦) فيلسوف هولندى عقلانى النزعة، كان يعتقد أن كثيرا من التقاليد المسيحية مشكوك فيها، وأن التفكير الفلسفى أدى إلى حالة عامة من الشك، وأن الطبيعة تفرض على الإنسان الإيمان الأعمى.

** الكنيسة المشيخية مشهورة فى أمريكا، وهى بروتستنتية يديرها شيوخ منتخبون متساوون فى المكانة والدرجة.

مقدما بأن مصيرهم جهنم إلى الأبد، بغض النظر عن فضائلهم وجرائمهم. وقد صدم المسيحيون المتعلمون عند زيارة كنيسة سيستين باللوحة التى رسمها مايكل أنجلو للمسيح، وصوره فيها وهو يرمى المذنبين شذَرَ مذَرَ فى جهنم التى لا تنطفىء نيرانها على الإطلاق. فهل هذا هو «يسوع الرقيق، الحليم اللطيف» الذى أثر فى شبابنا وأحيا فينا الآمال؟ لقد أضعف التطور الأخلاقى عند الإغريق إيمانهم بآلهة أوليمبوس المتقاتلين الزناة (كتب أفلاطون قائلا «إن نسبة معينة من البشر لا يؤمنون بوجود الآلهة على الإطلاق»[٢٧]) وعلى هذا النحو بالضبط تآكل اللاهوت المسيحى فى بطء بفعل تطور الأخلاق المسيحية. وبذلك دمّر يهوه المسيح.

لقد كان إحلال المؤسسات العلّمانية محل المؤسسات المسيحية ذروة نتائج الثورة الصناعية وأخطرها. وتعد محاولة الدول الاستغناء عن الدعائم اللاهوتية من بين التجارب العديدة الحاسمة التى تحير اليوم عقولنا وتقلق عاداتنا. فالقوانين التى سبق تقديمها على أنها مراسيم صادرة من ملك وهبه الله لعباده تُعَدُّ اليوم ـ بصراحة ـ أوامر مشوشة من صنع بشر غير معصومين. والتعليم الذى كان المنطقة المحرمة عند القسس الملهمين من الله يصبح مهمة الرجال والنساء المجردين من أثواب اللاهوت ورهبته، ويعتمد على العقل

والإقناع فى تحضير المتمردين الشباب الذين لا يخشون إلا الشرطى، وقد لا يتعلمون كيف يعقلون على الإطلاق. والكليات التى سبق ربطها بالكنائس استولى عليها رجال الأعمال والعلماء. وها هى الدعاية للوطنية، أو الرأسمالية، أو الشيوعية، تؤدى إلى غرس عقيدة خارقة وقانون أخلاقى فى الأذهان. فالعطلات Holidays تحل محل الأعياد Holydays. والمسارح غاصة حتى فى أيام الأحد، فى حين أن الكنائس نصف فارغة حتى فى أيام الأحد. وقد صار الدين فى الأسر الأنجلوسكسونية عادة اجتماعية وخاصية واقية. أما فى الأسر الكاثوليكية الأمريكية فهو فى حالة ازدهار. وأما فى الطبقات العليا والمتوسطة بفرنسا وإيطاليا فهو يعد «خاصية جنسية ثانوية من خصائص الأنثى» وثمة مئات العلامات على أن المسيحية تجتاز ذات الانهيار الذى أصاب الدين الإغريقى القديم بعد ظهور السوفسطائيين وحركة التنوير الإغريقية.

غير أن الكاثوليكية باقية، لأنها تخاطب الخيال والرجاء والحواس، ولأن أساطيرها تدخل السلوى والبهجة على حياة الفقراء، ولأن القدرة على الإنجاب المحكومة عند المؤمنين تستعيد ـ ببطء ـ أراضيها التى استولت عليها حركة الإصلاح الدينى. وقد ضحت الكاثوليكية بموالاة جماعة المثقفين لها، وصارت تعانى من العلل

المتزايدة من خلال الاتصال بالتعليم والأدب العلمانيين. ولكنها تريح المهتدين من النفوس التى أضناها الشك فى العقل، ومن الآخرين الذين يحدوهم الأمل فى أن توقف الكنيسة الفوضى الداخلية والموجة الشيوعية.

وإذا حدث أن أهلكت حرب عظمى أخرى الحضارة الغربية فإن ما سيعقبها من دمار المدن، وانتشار الفقر، وخزى العلم، سيجعل الكنيسة الأمل والمرشد الوحيدين لأولئك الذين يظلون على قيد البقاء بعد الكارثة، كما حدث عام ٤٧٦*.

ثمة درس من دروس التاريخ يتمثل فى أن الدين متعدد الأرواح، دائب النشور والبعث. فما أكثر المرات التى تصور فيها الناس موت الإله والدين فى الماضى، ثم بعثا وتجددا ! وها هو إخناتون استخدم كل سلطات الفرعون للقضاء على دين آمون. ولكن لم يمر عام على وفاة إخناتون إلا وأعيد دين آمون (٢٨) وقد استشرى الإلحاد فى الهند عندما كان بوذا فى شبابه، وأسس بوذا نفسه دينا بغير إله. وبعد وفاته أنشأت البوذية لاهوتا مركبا يضم الآلهة والقديسين والجحيم (٢٩). وها هى الفلسفة والعلم والتعليم أفرغت

* الإشارة إلى ذلك العام تعنى نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية عقب خلع رومولوس أغسطس آخر أباطرتها.

البانثيون * الإغريقي من سكانه، ولكن الفراغ الذى نشأ اجتذب مجموعة من العقائد الشرقية الغنية بأساطير البعث والنشور. وفى عام ١٧٩٣ فسر إيبير وشوميت** ما كتبه فولتير تفسيرا خاطئا، فأسسا فى باريس العبادة الملحدة لربّـة العقل. وبعد عام خشى روبسبيير الفوضى، ووجد الإلهام فى كتابات روسّو فأسس عبادة الكائن الأعظم. وفى عام ١٨٠١ وقع نابليون المتضلع من التاريخ اتفاقيةً مع البابا بيوس السابع تقضى بإعادة الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا. واختفت زندقة القرن الثامن عشر فى انجلترا فى ظل التسوية الفيكتورية مع المسيحية. فقد وافقت الدولة على دعم الكنيسة الأنجليكانية، وكظمت الطبقات المتعلمة نزوعها إلى الشك فى الدين، بحيث يكون من المفهوم ضمنا أن تقبل الكنيسة الخضوع للدولة، وأن يخدم القس البروتستنتى، فى تواضع، مالك الأراضى الكبيرة. وفى أمريكا أفسحت عقلانية «الآباء المؤسسين»*** المجال لنهضة دينية فى القرن ١٩.

* البانثيون : هيكل عبادة الآلهة الإغريق أو معبدهم Pantheon.

** جان رينيه إيبير (١٧٥٧ ـ ١٧٩٤) صحفى سياسى فرنسى ناصر الثورة، وشارك فيها، ولكنه تطرف فى هجومه على الكنيسة والدين. انتهت حياته بالإعدام بالمقصلة. أما بيير جاسبار شوميت (١٧٦٣ ـ ١٧٩٤) فكان من زعماء الثورة والإصلاح. روج للعداء ضد المسيحية. ثم تطرف كزميله سياسيا فأعدم بالمقصلة.

*** الآباء المؤسسون Founding Fathers هم الذين وقعوا على الدستور الأمريكى ١٧٨٧.

وهكذا يتعاقب التزمت الديني والوثنية في التاريخ ـ أى كبح الحواس والشهوات والتعبير ـ عنهما ـ على أساس التفاعل المشترك. فالدين والتزمت يسودان بشكل عام في الفترات التي يضعف فيها القانون ويتوجب على الأخلاق أن تحمل عبء صيانة النظام الاجتماعي. أما نزعة الشك والوثنية (اللتان تتساويان مع العوامل الأخرى) فتتقدمان كلما سمحت السلطة المتزايدة للقانون والحكومة بانهيار الكنيسة والأسرة والأخلاق، دون تهديد استقرار الدولة بشكل أساسي. وقد توحدت قوة الدولة في عصرنا مع القوى العديدة التي سبق أن أوردناها للتخفيف من العقيدة والأخلاق، والسماح للوثنية باستئناف تأرجحها الطبيعي. ومن المحتمل أن تأتينا ألوان التجاوز والإفراط برد فعل آخر. فقد تولّد الفوضى الأخلاقية نهضة دينية. وقد يرسل الملحدون أولادهم (كما حدث في فرنسا بعد انهيار عام ١٨٧٠)* إلى المدارس الكاثوليكية مرة أخرى، كي يتعلموا الإيمان الديني. واسمع نداء رينان اللا أدرى** عام ١٨٦٦:

---

* المقصود بهذا الانهيار هزيمة نابليون الثالث (١٨٠٨ ـ ١٨٧٣) نتيجة سياسته الخارجية العدوانية وتقصيره في الإصلاح الداخلي.

** إرنست رينان (١٨٢٣ ـ ٩٢) مفكر فرنسي يعد من اللا أدريين، أى الذين يعتقدون أن ما يتعلق بوجود الله وأصل الكون لا يمكن معرفته. وكان يرفض القول بالمعجزات، ويعتقد أن مستقبل العالم يكمن في تقدم العلم.

«فلنستمتع بحرية أبناء الله، ولكن لنأخذ حذرنا حتى لا نصبح شركاء فى جريمة نقصان الفضيلة التى ستهدد المجتمع إذا كتب على المسيحية أن تزداد ضعفا. فماذا سنفعل بدونها؟... لو أرادت العقلانية أن تحكم العالم دون اعتبار للحاجات الدينية للروح فأمامنا تجربة الثورة الفرنسية كى تعلمنا عواقب مثل هذا الخطأ الفاضح»[٣٠].

هل يضمن التاريخ ما انتهى إليه رينان من أن الدين لازم للأخلاق ـ وأن الأخلاق الطبيعية شديدة الضعف إلى درجة لا تستطيع فيها الصمود أمام الهمجية التى تتوارى تحت الحضارة وتظهر فى أحلامنا، وجرائمنا وحروبنا؟ لقد أجاب جوزيف دى ميستر: «لا أدرى شيئا عما يكون عليه قلب الوغد الوضيع، ولكنى أعرف ما يحتويه قلب الرجل الشريف. إنه شىء فظيع»[٣١] ولا يوجد مثال ذو دلالة فى التاريخ، قبل عصرنا، لمجتمع ناجح فى صيانة الحياة الأخلاقية بدون معونة من الدين. وقد قامت فرنسا والولايات المتحدة وأمم أخرى بفصل حكومتها عن جميع الكنائس، ولكنها لجأت إلى معونة الدين فى المحافظة على النظام الاجتماعى. ولم تتحلل من الارتباط بالدين، بل لم تتبرأ من معونته، سوى بضع دول شيوعية. وربما يدين النجاح الظاهر والمؤقت لهذه التجربة فى روسيا بالكثير

إلى قبول الشيوعية المؤقت كدين (أو أفيون على حد تعبير المتشككين) للشعب، وإحلالها محل الكنيسة كبائع للعزاء والرجاء. وإذا قدر للنظام الاشتراكي أن يفشل في جهوده للقضاء على الفقر في أوساط الجماهير لفقد هذا الدين الجديد حماسته وقدرته على التأثير، ولتغاضت الدولة عن عودة المعتقدات الخارقة كمعونة في تهدئة السخط. «فمادام الفقر موجودا ستوجد آلهة»[٣٢].

٨ ـ الاقتصاد والتاريخ

التاريخ ـ كما يقول كارل ماركس ـ هو الاقتصاد فى حالة نشاط ـ أى المنافسة بين الأفراد والجماعات والطبقات والدول على الطعام والوقود والمواد الخام والقوة الاقتصادية. أما الأشكال السياسية، والمؤسسات الدينية، والإبداعات الثقافية، فهى جميعا ذات جذور فى الواقع الاقتصادى. ومن ثمة جلبت الثورة الصناعية معها الديموقراطية، والمساواة بين الجنسين، وتحديد النسل، والاشتراكية، وانهيار الدين، وانحلال الأخلاق، وتحرر الأدب من الاعتماد على الرعاية الأرستوقراطية، وإحلال الواقعية محل الرومانتيكية فى القصص والروايات ـ والتفسير الاقتصادى للتاريخ. وكانت الشخصيات المرموقة فى هذه الحركات معلولات لا عللاً. فأجا ممنون وأخيل وهكتور لم يكن ليسمع بهم أحد على الإطلاق ما لم يسع الإغريق إلى السيطرة التجارية على مضيق الدردنيل. والطموح الاقتصادى، لا

وجه هيلين «الأجمل من نسيم المساء المكسو بحسن ألف نجمة» هو الذى أطلق ألف سفينة إلى مدينة إليوم* Ilium. فقد كان هؤلاء الإغريق الأذكياء يعرفون كيف يسترون الحقيقة الاقتصادية العارية بورقة تين من الكلمات البليغة.

ولاشك أن التفسير الاقتصادى يضىء كثيرا من زوايا التاريخ فأموال الاتحاد الديلوسى** هى التى أقامت البارثنون. وخزانة مصر فى عهد كليوباترا هى التى أحيت إيطاليا المستنزفة فى عهد أغسطس، ومنحت فرجيل راتباً سنوياً وهوراس مزرعة. وكانت الحروب الصليبية، مثلها مثل حروب روما ضد الفرس، محاولات من جانب الغرب للسيطرة على طرق التجارة مع الشرق. وكان اكتشاف أمريكا نتيجة فشل الحروب الصليبية. وقد مول بنك آل ميديتشى حركة

* إليوم هو الإسم الذى جاء فى إلياذة هوميروس لمدينة طروادة. وتنتسب هيلين إليها. وجاء فى أسطورتها أنها ابنة الإله زيوس برغم اسمها غير الإغريقى. ولما خطفها باريس ابن الإله بريام نشبت حرب طروادة لسبب اقتصادى لا لحسنها.

** نسبة إلى جزيرة يونانية صغيرة اسمها ديلوس Delos كانت مركز تحالف من المدن ـ الدول اليونانية لمواجهة الفرس أعوام ٤٧٨ـ٤٤٧ ق.م. ونظراً لسيطرة أثينا على الحلف فقد نقلت خزانته إليها بعد الحرب، وأنفقت منها على البارثينون.

النهضة بمدينة فلورنسه. وأمكن لديرر*Dürer الظهور عن طريق تجارة مدينة نورمبرج وصناعتها. ولم تحدث الثورة الفرنسية لأن فولتير ألف هجائيات رائعة، وروسو كتب روايات عاطفية، وإنما لأن الطبقات المتوسطة تولت القيادة الاقتصادية، واحتاجت إلى حرية التشريع من أجل مشاريعها وتجارتها، وتلهفت على قبول الاشتراكية وحيازة السلطة السياسية.

ولم يزعم ماركس أن الأفراد تحركوا على الدوام بحكم المصلحة الاقتصادية. فقد كان أبعد ما يكون عن تصور أن الاعتبارات المادية أدت إلى قصة حب أبيلار** Abèlard ، أو تعاليم بوذا أو أشعار كيتس*** . ولكن لعله بخس قيمة الدور الذى تؤديه الحوافز غير الاقتصادية في سلوك الجماهير: بالحمية الدينية كما فى جيوش

* ألبرخت ديرر (١٤٧١ ـ ١٥٢٨) رسام ألمانى من نورمبرج تأثر بفنانى النهضة فى إيطاليا، ومارس الحفر على الخشب والرسم بالزيت وألوان الماء مع دقة فى التفاصيل.

** بيتر أبيلار (١٠٧٩ ـ ١١٤٢) عالم وفيلسوف ولاهوتى فرنسى. أدى تفكيره المستقل القلق إلى اتهامه بالزندقة مرتين. ثم فصل من الجامعة بعد نشره قصة غرامه بإحدى تلميذاته. وحكم عليه بالإخصاء، فترهبن مع حبيبته.

*** جون كيتس (١٧٩٥ ـ ١٨٢١) شاعر إنجليزى معروف. أحب فكتب أفضل شعره.

المسلمين أو الإسبان، أو الحماسة الوطنية كما فى جيوش هتلر أو قوات الكاميكازى اليابانية، أو بالغضب الملقح تلقيحاً ذاتياً عند العامة كما فى حوادث الشغب المعادية للكاثوليك بلندن والمنسوبة إلى اللورد جوردون، فى فترة ٢ـ ٨ يونيو ١٧٨٠ ، أو مذابح فترة ٢ـ٧ سبتمبر ١٧٩٢ بباريس. ففى هذه الحالات قد تكون دوافع الزعماء (الخفيين عادة) اقتصادية، ولكن النتيجة تحددها ـ إلى درجة كبيرة ـ عواطف الجماهير. وفى كثير من الأمثلة كانت السلطة السياسية سبباً ظاهراً للعمليات الاقتصادية لا نتيجة لها، كما فى حالة استيلاء البلاشفة على روسيا عام ١٩١٧، أو فى انقلابات الجيش التى تشبه علامات الوقف فى تاريخ أمريكا الجنوبية. ومن ذا يستطيع أن يزعم أن فتح المسلمين لإسبانيا، أو فتح المنغول لغرب آسيا، أو فتح المغول للهند، نتاج للقوة الاقتصادية؟ ففى هذه الحالات أثبت الفقراء أنهم أقوى من الأغنياء، وأدى النصر العسكرى إلى الهيمنة السياسية، وأدت هذه الهيمنة إلى السيطرة الاقتصادية. وهكذا يستطيع القادة العسكريون أن يكتبوا التفسير العسكرى للتاريخ.

ولعلنا، إذا أدخلنا فى حسابنا هذه الاحتراسات، نستطيع أن نستخلص من التحليل الاقتصادى للماضى ما لا حصر له من

الدروس. فنحن نلاحظ أن البرابرة عندما غزوا روما وجدوها ضعيفة، لأن سكانها الزراعيين الذين سبق أن زودوا الجيوش بمقاتلين شجعان ووطنيين يدافعون عن الأرض حل محلهم عبيد يكدحون بهمة فاترة على أرض مزارع شاسعة يملكها شخص واحد، أو بضعة أشخاص. وها هو عجز المزارع الصغيرة اليوم عن استخدام أفضل الآلات بصورة مربحة يجبر الزراعة مرة أخرى على الإنتاج بكميات كبيرة في ظل ملكية رأسمالية أو شيوعية. وقد قيل ذات مرة إن «الحضارة عالة على الرجل ذى الفأس»(٣٣) ولكن الرجل ذا الفأس لم يعد موجوداً، وإنما أصبح الآن «ذراعاً» فى عجلة جرّار أو آلة حصاد. فالزراعة تتحول إلى صناعة، والفلاح سرعان ما سيضطر إلى الاختيار بين أن يكون موظفاً عند أحد الرأسماليين وأن يكون موظفاً في دولة.

وفى الطرف الآخر من الميزان يقول لنا التاريخ إن «الذين يستطيعون التحكم في البشر يتحكمون فى الذين لا يستطيعون التحكم إلا فى الأشياء، وأن الذين يستطيعون التحكم فى المال يتحكمون فى كل شيء»(٣٤) ومن ثمة يصعد أصحاب البنوك إلى قمة الهرم الاقتصادى، لأنهم يراقبون تيارات الزراعة والصناعة، ويشجعون تدفق رأس المال ويوجهونه، ويوظفون أموالنا مثنى وثلاث،

ويتحكمون فى القروض والفائدة والمشروعات، ويتحملون مخاطر كبيرة فى سبيل تحقيق أرباح كثيرة. وابتداء من ميديتشى فى فلورنسه وآل فوجر فى أوجسبورج إلى آل روتشيلد فى باريس ولندن وآل مورجان في نيويورك، شارك أصحاب البنوك فى مجالس الحُكْم، ومولوا الحروب والبابوات، وأشعلوا الثورات من وقت لآخر. وربما كان أحد أسرار سلطتهم أنهم درسوا تقلبات الأسعار، ولذلك يعرفون أن التاريخ ميال إلى التضخم المالى، وأن المال آخر شيء يدخره الإنسان العاقل.

وتجربة الماضى لا تدع كثيرا من الشك فى أن كل نظام اقتصادى لا بد أن يعتمد ـ عاجلاً أو آجلاً ـ على شكل من أشكال حافز الربح، حتى يحرك فى الأفراد والجماعات طاقة الإنتاج. أما البدائل مثل الرق، أو رقابة الشرطة، أو الحماسة الأيديولوجية، فقد أثبتت أنها غير منتجة أكثر من اللازم، أو غالية أكثر من اللازم، أو مؤقتة أكثر من اللازم. والحكم على البشر يكون ـ عادة وعموماً ـ على أساس قدرتهم على الإنتاج ـ باستثناء حالة الحرب حين يصنفون حسب قدرتهم على التدمير.

ولما كانت القدرة العملية تتفاوت من شخص إلى آخر فغالبية هذه القدرات ـ فى جميع المجتمعات تقريباً ـ تتجمع فى أقلية من

البشر. وتركيز الثروة نتيجة طبعية لهذا التركيز فى القدرة، وهو يحدث فى التاريخ بصورة منتظمة. ويتغير معدل التركيز (مع تساوى العوامل الأخرى) بتغير الحرية الاقتصادية التى تسمح بها الأخلاق والقوانين. وقد يؤخر الاستبداد عملية التركيز قليلاً، ولكن الديموقراطية تسرع بها، لأنها تتيح أكبر قدر من الحرية. فالمساواة النسبية عند الأمريكيين قبل عام ١٧٧٦ طغى عليها ألف شكل من أشكال التفاضل الجسمانى والعقلى والاقتصادى، بحيث إن الفجوة بين الأغنى والأفقر تعد اليوم أكبر من أى وقت مضى منذ أيام حكم الأغنياء فى روما الإمبراطورية. وقد يصل التركيز فى المجتمعات التقدمية إلى نقطة تنافس فيها قوة عدد الكثرة الفقيرة قوة القدرة فى القلة الغنية. وعند ذاك يولّد التوازن غير المستقر موقفاً حرجاً، واجهه التاريخ بطرق متعددة عن طريق التشريع الذى يعيد توزيع الثروة، أو الثورة التى تعيد توزيع الفقر.

لقد حدث فى أثينا عام ٥٩٤ ق.م ـ كما يروى بلوتارك ـ أن «تفاوت الثروة بين الأغنياء والفقراء وصل إلى ذروته بحيث بدت المدينة فى حالة خطرة، ولم يكن فى الإمكان اتخاذ أية وسيلة أخرى لتخليصها من الاضطرابات... سوى السلطة المستبدة»[٣٥] فقد وجد الفقراء أن حالهم تسوء سنة بعد سنة ـ والحكم فى أيدى سادتهم،

والمحاكم الفاسدة تحكم فى كل قضية ضدهم ـ فبدأوا يتحدثون عن الثورة العنيفة. أما الأغنياء الذين أغضبهم تحدى ملكيتهم فقد تهيأوا للدفاع عن أنفسهم باستخدام القوة. ثم ساد العقل السليم، فكفلت العناصر المعتدلة انتخاب صولون، وهو تاجر من أصل أرستوقراطى، فصار الحاكم الأعلى. وقام بتخفيض قيمة العملة، وبذلك خفف عبء جميع المدينين (مع أنه هو نفسه كان من الدائنين) ثم خفض جميع الديون الشخصية، وأبطل عقوبة السجن المفروضة على عدم تسديد الدين، وألغى متأخرات الضرائب والفائدة على الرهن، وفرض ضريبة تصاعدية على الدخل بحيث جعل الأغنياء يدفعون بمعدل اثنى عشر ضعفاً لما يستحق على الفقراء، ونظم المحاكم على أساس أكثر شعبية، ورتب تربية أبناء شهداء الحرب من أجل أثينا وتعليمهم على نفقة الحكومة. واحتج الأغنياء بأن هذه الإجراءات مصادرة صريحة لأموالهم. وشكا المتطرفون من أنه لم يعِدْ تقسيم الأرض. ولكن الجميع تقريباً سلّموا خلال جيل واحد بأن إصلاحاته أنقذت أثينا من الثورة[٣٦].

وقد حدث أن تبنى مجلس الشيوخ الرومانى، الذى اشتهر بحكمته، اتجاهاً متشدداً حين وصل تركيز الثروة إلى درجة متفجرة فى إيطاليا، فكانت النتيجة مائة عام من الحرب الطبقية والأهلية.

واقترح طيبريوس جراكوس، وهو أرستوقراطى انتخب فى وظيفة المدافع عن حقوق الشعب، أن يعاد توزيع الأرض بحيث تقتصر الملكية على ٣٣٣ فداناً * للشخص الواحد، وأن يخصص فائض الأرض للبروليتاريا الضجرة التي تعيش في العاصمة. ولكن مجلس الشيوخ رفض اقتراحيه، وعدّهما مصادرة للملكية، فاحتكم إلى الناس، وقال لهم : «إنكم تقاتلون وتموتون لكى تهبوا الثراء والترف لغيركم. وها أنتم تسمون سادة العالم، ولكن لا توجد قدم واحدة من الأرض يمكنكم التباهى بملكيتها»(٣٧) وخالف القانون الرومانى فنظم حملة لإعادة انتخابه مدافعاً عن حقوق الشعب. وفى يوم الانتخاب وقع شغب، وذهب ضحيته (عام ١٣٣ ق.م) وتبنى أخوه كايوس قضيته، ولكنه فشل فى منع تجدد العنف، فأمر خادمه بقتله. وأطاعه العبد ثم انتحر (عام ١٢١ق.م) وأصدر مجلس الشيوخ مرسوماً بإعدام ثلاثة آلاف من أتباع كايوس. ثم صار ماريوس زعيم العامة، ولكنه انسحب عندما اقتربت الحركة من شفا الثورة. وقام كاتيلين، الذى اقترح إلغاء جميع الديون، بتنظيم جيش ثورى من

* إيكر Acre فى الأصل وهو نحو ٤٠٠٠ متر مربع، أى أقل قليلاً من الفدان وهو ٤٢٠٠ متر مربع. ولكن الإيكر غير معروف عندنا ولا يوجد له مقابل دقيق.

«المعوزين البائسين» ولكن بلاغة شيشرون* الغاضبة غمرته، ومات في القتال ضد الدولة (عام ٦٢ ق.م) ثم حاول يوليوس قيصر أن يقدم حلاً وسطاً، ولكن الأشراف قتلوه (عام ٤٤ ق.م) بعد خمس سنوات من الحرب الأهلية. وخلط مارك أنطوني بين تأييده لسياسة قيصر وطموحاته الشخصية وقصة حبه، فهزمه أوكتافيوس في موقعة أكتيوم، وأسس مبدأ «القيادة المركزية» Prinicipate الذى حافظ ـ طيلة ٢١٠ سنوات (٣٠ق.م ـ ١٨٠م) ـ على السلام الرومانى** Pax Romana بين الطبقات، وبين الولايات، داخل حدود الإمبراطورية على السواء[٣٨].

وبعد انهيار النظام السياسى فى الإمبراطورية الرومانية الغربية (عام ٤٧٦م) حلت قرون من الفقر المدقع، تلاها تجدد وإعادة تركيز بطيئان فى الثروة، وانعكس ذلك إلى حد ما على هيئة كهنوت

---

* جايوس ماريوس (١٥٧ـ ٨٦ق.م) قائد وسياسى انتخب قنصلاً، واستولى على روما بالقوة عام ٨٧ق.م ومات فى العام التالى. ولوكوس كاتيلين نبيل وسياسى طمع فى السلطة فى عهد ماركوس شيشرون (١٠٦ـ٤٣ق.م) القنصل والخطيب والأديب المشهور.

** السلام الرومانى كان يعنى فرض السلام بالقوة، عن طريق الفتح أو طلب الانضمام إلى الإمبراطورية، وصار فى المصطلح السياسى الحديث يعنى فرض السلام بالقوة.

الكنيسة الكاثوليكية. وكانت حركة الإصلاح الدينى فى أحد جوانبها إعادة توزيع للثروة عن طريق تخفيض المدفوعات الألمانية والإنجليزية للكنيسة الكاثوليكية، واستيلاء السلطة المدنية على الملكيات والدخول الكنسية. ثم حاولت الثورة الفرنسية إعادة توزيع الثروة بالعنف عن طريق تمرد الفلاحين في الريف والمذابح فى المدن، ولكن النتيجة الأساسية تمثلت فى نقل الملكية والامتياز من الأرستوقراطية إلى البورجوازية. واتبعت حكومة الولايات المتحدة، فى أعوام ١٩٣٣ـ١٩٥٢ و ١٩٦٠ـ١٩٦٥، مناهج صولون السلمية، وحققت إعادة توزيع معتدلة ومهدِّئة. ويبدو أن بعض المسئولين كان قد درس التاريخ. ولكن الطبقات العالية فى أمريكا سخطت، ثم أذعنت، واستأنفت تركيز الثروة.

ونخلص إلى أن تركيز الثروة شيء طبعى وحتمى، تلطِّفه دورياً إعادة توزيعها جزئياً بعنف أو بهدوء. وفى ضوء هذه الفكرة يكون التاريخ الاقتصادى كله أشبه بنبضات القلب البطيئة للكائن الاجتماعى، فهو انقباض وانبساط هائلان فى تركيز الثروة وإعادة توزيعها بالإكراه.

٩ـ الاشتراكية والتاريخ

يعد صراع الاشتراكية ضد الرأسمالية جزءاً من التوازن التاريخى فى تركيز الثروة وانتشارها. فلا شك أن الرأسمالى أدى وظيفة إبداعية فى التاريخ: جمع مدخرات الناس، وحولها إلى رأسمال منتج، عن طريق الوعد بالربح أو الفائدة. وقام بتمويل ميكنة الصناعة والزراعة، وترشيد التوزيع. وتمخضت النتيجة عن تدفق مدهش للسلع من المنتج إلى المستهلك لم ير له التاريخ مثيلاً. كما وضع هذا التدفق تعاليم الحرية الليبرالية تحت تصرفه، بمحاولته البرهنة على إمكان قيام رجال الأعمال ـ عند تحريرهم نسبياً من رسوم النقل واللوائح التشريعية ـ بتزويد الجمهور بوفرة فى الطعام والبيوت ووسائل الراحة والترفيه أكبر من أية وفرة أخرى جاءت عن طريق الصناعات التى يديرها الساسة، ويعمل بها موظفون حكوميون، وتفترض حصانتها ضد قوانين العرض والطلب. وفى المشروع الحر يثير حافز المنافسة والحماسة للتملك وحيويته طاقة

البشر على الإنتاج والابتكار. فكل قدرة اقتصادية تقريباً تجد ـ عاجلاً أو آجلاً ـ محرابها ومكافأتها فى خلط المواهب والانتخاب الطبعى للمهارات. وأدنى حد من الديموقراطية يحكم هذه العملية بحيث يتحدد ما يجب إنتاجه من السلع، وتأديته من الخدمات، على أساس طلب الجمهور، لا على أساس قرار حكومى. وفى ذات الوقت تفرض المنافسة على الرأسمالى أن يعمل بجد واجتهاد، كما تفرض على منتجاته أن تتزايد جودتها.

وثمة كثير من الحق فى هذه الدعاوى اليوم، ولكنها لا تفسر سرَّ ذلك الدوى الهائل فى التاريخ الذى تحدثه الاحتجاجات والثورات ضد مظالم السيادة الصناعية، والتلاعب بالأسعار، والاحتيال التجارى، والثراء الطائش. ولا بد أن تكون هذه المظالم طاعنة فى السن، لأن ثمة تجارب اشتراكية ظهرت فى كثير من البلدان والقرون. فنحن نقرأ أنه فى سومر Sumeria نحو عام ٢١٠٠ ق.م:

«كان الاقتصاد تنظمه الدولة. وكان معظم الأرض الصالحة للزراعة ملْك القصر الملكى. ودرج العمال على تسلُّم حصص الطعام من المحاصيل التى تتلقاها المخازن الملكية. ومن أجل إدارة اقتصاد الدولة الهائل هذا أُنشئت هيئة هرمية

متميزة الوظائف، وحُفظت سجلات بجميع الحصص المعطاة والموزعة. وعثر على عشرات الألوف من الألواح الفخارية المنقوش عليها هذه السجلات بالعاصمة أور ذاتها، وفى مدينتى لقش وأوما... وكانت التجارة الخارجية تتم أيضاً باسم الإدارة المركزية»(٣٩).

وفى بابل (نحو عام ١٧٥٠ ق.م) حدد قانون حمورابى أجور الرعاة والحرفيين، والنفقات التى يطلبها الأطباء لقاء إجراء العمليات الجراحية(٤٠).

وفى مصر ـ فى عهد البطالمة (٣٢٣ ـ ٣٠ ق.م) ـ كانت الدولة تملك الأرض وتدير الزراعة: تحدد للفلاح الأرض التى يفلحها، والمحاصيل التى يزرعها. وكان المحصول يوزن ويسجل على أيدى كتبة الحكومة، ثم يدرّس على ساحات الدّرس الملكية، وتنقله سلسلة بشرية من الفلاحين إلى مخازن غلال الملك. كما كانت الحكومة تملك المناجم وتستولى على المعادن الخام. وقامت بتأميم إنتاج وبيع الزيت والملح وورق البردى والمنسوجات. وكانت الدولة تتحكم فى جميع ألوان التجارة وتنظمها. كما كانت معظم تجارة التجزئة فى أيدى وكلاء الدولة الذين يبيعون إنتاجها من السلع. وكانت الصيرفة احتكاراً للدولة، ولكن ممارستها كان يعهد بها لمؤسسات من القطاع الخاص. أما الضرائب فكانت تفرض على

كل شخص، وصناعة، وعملية إنتاجية، وسلعة، وبيع، ووثيقة قانونية. ولمتابعة المعاملات التجارية والدخول المستحقة للضرائب كانت الحكومة تستخدم حشدا من الكتبة ونظاماً معقداً لتسجيل الأحوال الشخصية والملكية. وجعل عائد هذا النظام الدولة البطلمية أغنى الدول فى عصرها (٤١). فقد تم إنجاز المشروعات الهندسية الضخمة، وتحسين الزراعة، وتخصيص نسبة كبيرة من الأرباح لتطوير البلاد وتجميلها وتمويل حياتها الثقافية. وفى نحو عام ٢٩٠ ق.م أنشئ متحف الإسكندرية ومكتبتها الشهيران. وازدهر العلم والأدب. وفى تواريخ معينة فى هذه الفترة البطلمية قام بعض العلماء بالترجمة «السبعينية»* Septuagint للأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم إلى اللغة اليونانية. ومع ذلك، سرعان ما لجأ الفراعنة إلى حروب باهظة. وبعد عام ٢٤٦ ق.م استسلموا للشراب، وانغمسوا فى الملذات، مما أدى إلى سقوط إدارة الدولة والاقتصاد فى أيدى الأوغاد الذين طحنوا الفقراء، واستخلصوا منهم كل قرش ممكن. وراحت ألوان الابتزاز الذى تمارسه الدولة تنمو جيلاً بعد جيل. وازدادت الإضرابات عن العمل عدداً وعنفاً. وفى العاصمة، الإسكندرية، أُغرى الأهالى بالسلام عن طريق المنح الحكومية والعروض الاستعراضية، ولكنهم خضعوا لرقابة قوة عسكرية كبيرة،

* سميت «السبعينية» لأن ٧٢ عالماً يهودياً قاموا بها فى ٧٢ يوما.

ولم يكن مسموحاً لهم بأى صوت فى الحكم، حتى صاروا فى النهاية غوغاء ميالين إلى العنف. وفسدت الزراعة والصناعة من خلال نقص الحوافز، وانتشر الانحلال الخلقى، ولم يستتب النظام إلا حين أخضع أوكتافيوس مصر للحكم الرومانى (عام ٣٠ق.م).

أما روما فقد مرت بفاصل اشتراكى فى عهد ديوقليتانوس*. فقد واجه فقراً وقلقاً متزايدين فى أوساط الجماهير، كما واجه خطر الغزو البربرى الوشيك، فأصدر عام ٣٠١ق.م «مرسوم الأسعار والأجور» Edictum de pretiis الذى عاقب المحتكرين على إخفاء السلع من السوق لرفع أثمانها، ووضع حدوداً عليا للأسعار والأجور لجميع السلع والخدمات المهمة. وتمت مباشرة أشغال عامة واسعة النطاق لتشغيل العاطلين، وكان الطعام يوزع على الفقراء بالمجان أو بأثمان مخفضة. وقامت الحكومة ـ التى كانت تملك معظم المناجم والمحاجر ومستودعات الملح ـ بإخضاع جميع الصناعات والنقابات الكبرى تقريباً للرقابة الدقيقة. وعرفنا أن «الدولة صارت صاحب عمل قوياً فى كل مدينة كبيرة... حيث تفوقت على أصحاب المصانع الخاصة الذين طحنتهم الضرائب على أى حال»(٤٢) وعندما تنبأ التجار بالخراب فسر ديوقليتانوس الموقف

---

* ديوقليتانوس (٢٤٥ ـ ٣١٦) إمبراطور رومانى تولى الحكم عام ٢٨٤ لمدة ١٩ سنة، وقام بإصلاح المالية والجيش.

بأن البرابرة على الأبواب، وأن الحرية الفردية يجب إهمالها حتى يمكن تأمين الحرية الجماعية. وهكذا كانت اشتراكية ديوقليتانوس بمثابة اقتصاد حرب، وتحققت بسبب الخوف من الهجوم الأجنبى. فإذا تساوت العوامل الأخرى تناسبت الحرية الداخلية مع الخطر الخارجى تناسباً عكسياً.

وقد أثبتت مهمة التحكم فى البشر على نحو اقتصادى مُفصَّل أنها كانت أقوى من أن تحتملها بيروقراطية ديوقليتانوس الموسعة، الباهظة، الفاسدة. واستدعت إعالة دولة الموظفين هذه ـ فى الجيش والقصر والأشغال العامة وإعانة العاطلين ـ زيادة الضرائب إلى مستويات أفقدت الناس الحافز على العمل أو الكسب، وبدأت منافسة طاحنة بين المحامين الباحثين عن حيل للتهرب من الضرائب والمحامين الذين يصوغون القوانين لمنع التهرب. وهربت الألوف من الرومان فراراً من محصلى الضرائب إلى خارج الحدود، بحثاً عن ملاذ بين البرابرة. ولكي توقف الحكومة هذا التحرك المحير، وتسهِّل التشريع وفرض الضرائب، قامت بإصدار مراسيم تلزم الفلاح بعدم ترك حقله، والعامل بعدم مغادرة محله، حتى يسددا كل ما عليهما من ديون وضرائب. وبهذه الطريقة وغيرها بدأ نظام رقيق الأرض فى العصور الوسطى[٤٣].

وأما الصين فقد مرت بعدة محاولات لاشتراكية الدولة. إذ يروى شوما شين (المولود نحو عام ١٤٥ ق.م) أن منع أفراد القطاع الخاص من «الانفراد باستخدام ثروات الجبال والبحار بغرض تحقيق الثراء، وإخضاع الطبقات الدنيا لنفوذهم»[٤٤] اقتضى أن يؤمم الإمبراطور ووتى (حكم فى الفترة من ١٤٠ إلى ٨٧ ق.م) موارد الأرض، وأن تشمل الإدارة الحكومية المواصلات والتجارة. كما اقتضى منه فرض ضريبة على الدخول، وإنشاء الأشغال العامة، ومن بينها القنوات التى تربط الأنهار وتروى الحقول. وأخذت الدولة تكدس المخزونات الاحتياطية وتبيعها عند ارتفاع الأسعار، ثم تشترى أكثر منها عند انخفاض الأسعار. وبذلك ــ كما يقول شوما شين ــ منعت التجار الأثرياء وأصحاب الحوانيت الكبيرة من تحقيق أرباح ضخمة ... وأتاحت تنظيم الأسعار داخل الإمبراطورية»[٤٥] واحتج التجار بأن الضرائب تجعلهم ينفقون على الكسالى وغير الأكفاء. ولما ضيّق ارتفاع تكاليف الحياة على الفقراء انضم هؤلاء إلى الأغنياء فى التذمر والمطالبة بالعودة إلى الأساليب القديمة. واقترح البعض أن يلقى مخترع هذاالنظام الجديد فى ماء مغلى. ثم أبطلت هذه الإصلاحات واحداً وراء الآخر، ونسيها الناس تقريباً عندما أحياها ملك فيلسوف صينى.

كان وانج مانج (حكم من ٩ إلى ٢٣م) عالما ضليعاً، وراعياً للأدب، ومليونيرا، بعثر أمواله على أصدقائه والفقراء. ولما استولى على العرش أحاط نفسه برجال خبراء بالآداب والعلوم والفلسفة. وقام بتأميم الأرض، وتقسيمها إلى قطع متساوية بين الفلاحين، وألغى الرق. وحاول أن يتحكم في الأسعار، مثلما فعل ووتى، عن طريق تكديس المخزونات الاحتياطية أو بيعها. وكان يقدم القروض لمشروعات القطاع الخاص بفائدة بسيطة. ولكن الجماعات التى تضررت من تشريعه اتحدت للتآمر على إسقاطه، وساعدها على ذلك الجفاف والفيضان والغزو الأجنبى، وتزعمت أسرة ليو الثرية حركة عصيان عام، وذبحت وانج مانج، وألغت تشريعه. ثم عاد كل شئ إلى سابق حاله[٤٦].

وبعد ألف عام قام وانج آن شيه، الذى كان رئيساً للوزراء (١٠٦٨ـ٨٥) بفرض السيطرة الحكومية الشاملة على الاقتصاد الصينى. وكان يرى أن «على الدولة أن تتولى الإدارة الكلية للتجارة، والصناعة، والزراعة، بهدف التخفيف عن الطبقات العاملة وحمايتها من الانسحاق على أيدى الأغنياء»[٤٧] وأنقذ الفلاحين من المرابين عن طريق إقراضهم بفائدة بسيطة. وشجع المستوطنين الجدد على الاستقرار بتزويدهم مقدما بالبذور وغيرها من المعونات، بحيث

يسددون قيمتها من غلة أرضهم في ما بعد. ونظم أشغالاً هندسية كبيرة للتحكم فى الفيضانات وإيقاف البطالة. وعين مجلساً فى كل منطقة لتنظيم الأجور والأسعار. وأمم التجارة. وأجرى الرواتب على المسنين والعاطلين والفقراء. وأصلح التعليم ونظام الامتحانات (الذى كان يحدد القبول فى الوظائف الحكومية) وذكر مؤرخ صينى أن «التلامذة طرحوا كتبهم الدراسية فى البلاغة، وبدأوا فى دراسة كتب مبادئ التاريخ والجغرافيا والاقتصاد السياسى»(٤٨).

ما الذى قوض التجربة؟

أولاً، الضرائب العالية المفروضة على الجميع بهدف تمويل عصابة متضخمة من موظفى الحكومة. وثانياً، تجنيد ذكرٍ واحد من كلِّ أسرة لملء الجيوش التى استلزمتها غزوات البرابرة. وثالثاً، فساد البيروقراطية. فقد واجهت الصين الاختيار بين السلب والنهب على الصعيد الشخصي، وابتزاز الأموال على الصعيد الرسمي. وأعلن المحافظون بزعامة شقيق وانغ آن شيه أن الفساد وانعدام الكفاءة فى الناس يجعلان السيطرة الحكومية على الصناعة غير قابلة للتطبيق، وأن أفضل اقتصاد هو نظام حرية العمل Laissez-Faire الذى يقوم على الدوافع الطبعية للبشر. ولما لدغ الأغنياء بالضرائب المرتفعة

على ثرواتهم واحتكار الحكومة للتجارة، أخذوا يصبون أموالهم فى حملة لتشويه النظام الجديد، وتعويق تطبيقه، والقضاء عليه. وقد مارست هذه الحركة الجيدة التنظيم ضغطاً مستمراً علي الإمبراطور. فلما توجت فترة أخرى من الجفاف والفيضان بظهور مُذنّب مخيف في السماء قام ابن السماء (الإمبراطور) بطرد وانغ آن شيه، وإبطال قوانينه، ودعوة المعارضة إلى تولى السلطة(٤٩).

غير أن أطول الأنظمة الاشتراكية عهداً فى التاريخ هو النظام الذى أقامه الإنكويون* في ما نسميه اليوم دولة بيرو، وفى تاريخ غير محدد من القرن ١٣. وقد أسسوا قوتهم إلى حد كبير على معتقد شعبى مؤداه أن الملك الذى يحكمهم هو مبعوث الشمس المعبودة. وقاموا بتنظيم وإدارة جميع ألوان الزراعة والعمل والتجارة. وكانوا يعدون إحصاء حكومياً وسجلات للمواد الخام والأفراد والدخل. وحافظ «العداءون» المحترفون، الذين استخدموا نظام الطرق المدهش، على شبكة الاتصال اللازمة لحكم شامل كهذا فوق أرض شديدة الاتساع. وكان كل شخص موظفاً فى الدولة وسعيداً بهذا الوضع،

---

* نسبة إلى شعب الإنكا الهندى الأمريكى الذى عاش بمنطقة جبال الأنديز الوسطى.

كضمان للأمن والقوت. وظل هذا النظام قائماً حتى فتح بيزارو*
بيرو عام ١٥٣٣.

وعلى المنحدر المقابل فى أمريكا الجنوبية، وفى مستعمرة برتغالية على نهر أوروجواى، قام ١٥٠ شخصاً من الطائفة اليسوعية بتحويل ٢٠٠ ألف هندى (أمريكى) إلى مجتمع اشتراكى آخر (١٦٢٠_١٧٥٠ تقريبا) وقام حكام هذا المجتمع من القسس بإدارة جميع ألوان الزراعة والتجارة والصناعة تقريباً. وسمحوا لكل شاب بأن يختار حرفة من الحرف التى قاموا بتعليمها، ولكنهم ألزموا كل شخص قادر جسمانياً بالعمل ثمانِ ساعات فى اليوم. وموّلوا الأنشطة الترفيهية، ونظموا الألعاب الرياضية، والرقص، والعروض الغنائية الجماعية التى شاركت فيها آلاف الأصوات، ودربوا الفرق الموسيقية الأوركسترالية التى عزفت الموسيقى الغربية. كما عملوا مدرسين وأطباء وقضاة، وسنوا قانوناً للعقوبات استبعد عقوبة الإعدام. وأجمعت الروايات على أن الأهالى كانوا طيعين وراضين. ولما هوجمت الجماعة دافعت عن نفسها بحمية ومقدرة أدهشتا

---

* فرانشيسكو بيزارو (١٤٧٨ ـ ١٥٤١) قائد الفتح الأسبانى الذى غزا إمبراطورية الإنكا بمائتى جندى، وقتل إمبراطورها، وأسس ملكية تابعة بعاصمتها كوزكو.

مهاجميها. وفي عام ١٧٥٠ تنازلت البرتغال لإسبانيا عن أراض تضم سبع مستوطنات يسوعية Jesuit . وانتشرت شائعة مؤداها أن أراضى هذه المستوطنات تحتوى على ذهب، فأصر الأسبان فى أمريكا على احتلالها فوراً. وأمرت الحكومة البرتغالية فى عهد بومبال (الذى كان على خلاف مع اليسوعيين وقتذاك) القسس والأهالى بترك المستوطنات. وبعد مقاومة قليلة من جانب الهنود انتهت التجربة(٥٠).

وقد حدث أثناء الثورة الاجتماعية التى رافقت حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا أن رفع عدة زعماء من الثوار شعارات ذات صبغة شيوعية مستقاة من الكتاب المقدس. وقام أحد الوعاظ، ويدعى توماس مينسر T. Münzer ، بدعوة الناس الى الإطاحة بالأمراء ورجال الدين والرأسماليين، وتأسيس «مجتمع منقّى» يشترك فى كل شيء(٥١). وجند جيشاً من الفلاحين، وألهب مشاعرهم بروايات عن الشيوعية بين الحواريين والرسل، ثم قادهم إلى القتال. ولكنهم منوا بالهزيمة، وذبح منهم خمسة آلاف، وقطع رأس مينسر (عام ١٥٢٥). ثم نظم هانز هيت H. Hut ، الذى قبل تعاليم مينسر، مجتمعاً من طائفة القائلين بتجديد العماد* فى مدينة

* طائفة بروتستنتية متشددة نشأت بعد عام ١٥٢٠. واشترطت شروطاً قاسية لعضوية كنيستها، وإعادة تعميد البالغين، ورفض عماد الأطفال.

أوسترليتز. ومارست هذه الجماعة الشيوعية لنحو قرن من الزمان (نحو ١٥٣٠ـ١٦٢٢) وتزعم جون اللايدنى* جماعة من هذه الطائفة أيضاً، واستولى معها على مدينة مينستر، عاصمة فستفاليا**، حيث أقام نظاماً ذا صبغة شيوعية دام ١٤ شهراً (١٥٣٤ـ٣٥)[٥٢].

وفى القرن ١٧ قامت جماعة من «أنصار المساواة» Levellers فى جيش كرومويل بالتوسل إلى الأخير لكى يؤسس يوتوبيا ذات صبغة شيوعية Communistic فى انجلترا. ثم خمد الهياج الاشتراكى أثناء فترة عودة الملكية Restoration، ولكنه علا مرة أخرى حين فضحت الثورة الصناعية طمع الرأسمالية الباكرة وفظاظتها ـ فى تشغيل الأطفال والنساء، والساعات الطويلة للعمل، والأجور الزهيدة، والمصانع والأحياء الفقيرة المفرّخة للأمراض. وخلع كارل ماركس وفردريش إنجلز على الحركة عهدها الأعظم Magna Carta فى صورة «البيان الشيوعى» المنشور عام ١٨٤٧، وكتابها المقدس Bible فى صورة «رأس المال»

* نسبة إلى مدينة لايدن فى هولندا.

** إقليم فى شمال غرب ألمانيا شكل جزءاً من بروسيا بعد تأسيس الحلف الرباعى عام ١٨١٥. وقد صار جزءاً من ألمانيا حالياً، وعاصمته مدينة دسلدورف.

(١٨٦٧ـ٩٥) وقد توقع الاثنان أن تطبق الاشتراكية لأول مرة فى انجلترا، لأن صناعتها كانت الأكثر تطوراً، بعد أن بلغت مرحلة من الإدارة المركزية من شأنها أن تؤدى إلى استيلاء الحكومة عليها. ولكن العمر لم يمتد بهما حتى يندهشا لنشوب الشيوعية فى روسيا.

لماذا ظهرت الاشتراكية الحديثة لأول مرة فى روسيا التى كانت رأسماليتها فى عهد الطفولة، ولم تكن بها شركات كبيرة تيسر الانتقال إلى سيطرة الدولة؟

لقد يَسَّرت ظهورها قرون من فقر الفلاحين، والثقوب التى أحدثتها ثورات المثقفين، ولكن الفلاحين كانوا قد تحرروا من رق الأرض عام ١٨٦١، ومال المثقفون نحو فوضوية مناقضة لفكرة الدولة التى تستوعب الجميع. وربما نجحت الثورة الروسية عام ١٩١٧ بسبب هزيمة الحكومة القيصرية وخزيها فى الحرب، وسوء الإدارة. فقد سقط الاقتصاد فى حال من الفوضى، وعاد الفلاحون من الجبهة وهم يحملون السلاح، وأمّنت الحكومة الألمانية عودة لينين وتروتسكى وتمنت لهما السلامة. واتخذت الثورة شكلاً شيوعياً، لأن الدولة الجديدة تحدتها الفوضى فى الداخل والهجوم من الخارج. وسلك الشعب مسلك أية أمة فى حالة حصار ـ فقد

نحي جانباً كل ما يتعلق بالحرية الفردية حتى يمكن إرجاع النظام والأمن. وهنا أيضاً كانت الشيوعية اقتصاد حرب. ولعلها استمرت من خلال الخوف المتصل من الحرب. ولو أتيح لها جيل من السلام لصار من المحتمل أن تتآكل بفعل طبيعة الإنسان.

وها هى الاشتراكية فى روسيا اليوم تعيد الدوافع الفردية إلى مكانها كى تكسب نظامها الحافز على الإنتاج، وتتيح لشعبها حرية بدنية وعقلية أكبر. وفى ذات الوقت تمر الرأسمالية بعملية متلازمة لتحديد التملك الفردى عن طريق التشريع شبه الاشتراكى، وإعادة توزيع الثروة من خلال فكرة «دولة الرفاه»*. وقد كان ماركس تلميذاً خائناً لهيجل** : فسر المنطق الجدلى الهيجلى بما يعنى أن الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية سينتهى بالانتصار الكامل للاشتراكية. ولكننا إذا طبقنا الصيغة الهيجلية القائمة على

* دولة الرفاه هى التى تضمن رفاهة مواطنيها عن طريق الخدمات الاجتماعية التى تديرها الحكومة كما فى بريطانيا. وقد تحققت الفكرة بعد الحرب العالمية الثانية.

** جورج هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) فيلسوف مثالى ألمانى حاول أن يسد الفجوة التى أحدثتها فلسفة كانط بين الطبيعة والروح والذات والموضوع، ودعا إلى الوحدة بدل الثنائية، والكل بدل الجزء. وألح فى فلسفة التاريخ على أن تطور فكرة الحرية هو سبيل التاريخ وهدفه.

القضية Thesis والنقيض Antithesis والمرَكّب Synthesis على الثورة الصناعية كفرض، والرأسمالية ضد الاشتراكية كنقيض، سيكون الحد الثالث مركب الرأسمالية والاشتراكية. وهذا الحل هو الذى يتجه إليه العالم الغربى بوضوح. فدور الحكومات الغربية فى الاقتصاد يزداد سنة بعد سنة، ونصيب القطاع الخاص يقل بالمثل سنة بعد سنة. ولكن الرأسمالية تحتفظ بحافز الملكية الخاصة، والمشروع الحر، والمنافسة، وتنتج مخزوناً كبيرا من السلع. والضرائب العالية، التى تُثْقِل على الطبقات العليا، تمكّن الحكومة من تزويد السكان، الذين يحددون أنفسهم، بخدمات غير مسبوقة فى التعليم والصحة والترفيه. وبسبب الخوف من الرأسمالية اضطرت الاشتراكية إلى توسيع مجال الحرية، فى حين أن الخوف من الاشتراكية أجبر الرأسمالية على زيادة حجم المساواة. فالشرق غرب والغرب شرق، وسرعان ما سيلتقى الاثنان.

١٠ـ الحكومة والتاريخ

كان ألكساندر بوب* يعتقد أنه لا يجادل في أشكال الحكومة سوى الأحمق. والتاريخ يتضمن كلاماً طيباً في حق هذه الأشكال جميعا، وفي حق الحكومة عموماً. فلما كان الناس يحبون الحرية، وكانت حرية الأفراد تتطلب بعض التشريع للسلوك، فإن أول شرط من شروط الحرية هو تقييدها. وذلك أننا إذا جعلناها مطلقة لماتت من الفوضى. ومن ثمة يكون أول واجب للحكومة هو إقرار النظام. فالقوة المركزية المنظمة هي البديل الوحيد للقوة المتقلبة الممزقة في أيدي الناس. والسلطة تميل ـ بطبيعتها ـ إلى التجمع في مركز، لأنها لا تثمر إذا قُسّمت وخُفّفت وفُرّقت كما حدث في بولندا في عهد حق الاعتراض الحر** Liberum veto . ولذا أثنى

---

* ألكساندر بوب (١٦٨٨ـ١٧٤٤) شاعر وناثر إنجليزي مرموق، ترجم الإلياذة والأوديسة شعراً.

** حق الاعتراض الحر كان يخول أي عضو في البرلمان سحب أي إجراء أو حل البرلمان بصوت واحد. وقد ظهر في بولندا عام ١٦٥٢، وألغي عام ١٧٩١، ونتجت عنه مشكلات كثيرة في سلطات الحكومة.

المؤرخون على تركيز ريشيليو أو بسمارك* للسلطة فى النظام الملكى على الرغم من احتجاج البارونات الإقطاعيين. وقد أدت عملية مماثلة إلى تركيز السلطة في الحكومة الاتحادية بالولايات المتحدة. فقد كان الكلام عن «حقوق الولايات» بغير طائل فى الوقت الذى تجاهل فيه الاقتصاد حدود الولايات، ولم يكن من الممكن تنظيمه إلا بسلطة مركزية ما. وها هى فكرة الحكومة الدولية تنمو مع تخطي الصناعة والتجارة والمال للحدود واتخاذها أشكالاً دولية.

والظاهر أن النظام الملكى هو أكثر أنواع الحكم طبعية، لأنه يطبق على الجماعة سلطة الأب داخل الأسرة، أو الزعيم داخل عصابة مقاتلة. وإذا قسنا أشكال الحكم بغلبتها ودوامها فى التاريخ لمنحنا غصن الغار للنظام الملكي. أما الأنظمة الديموقراطية فكانت ـ على العكس من هذا ـ فصولاً إضافية محمومة.

لقد حدث بعد انهيار الديموقراطية الرومانية فى حروب الطبقات التى أثارها الأخوَان جراتشى**، وماريوس، وقيصر، أن قام

* أرمان ريشيليو (١٥٨٥ ـ ١٦٤٢) كاردينال وسياسي فرنسي كان وزيرا للملك لويس ١٣. اشتهر بسياسة الحكومة المركزية فى الداخل والعدوان في الخارج. وأوتو بسمارك (١٨١٥ ـ ٩٨) سياسي ألماني كان وراء توحيد ألمانيا، وأصبح مستشارا لإمبراطوريتها، واشتهر بمركزية الحكم فى الداخل وسياسة الأحلاف في الخارج.

** الأخوان جراتشي هما: طيبريوس (مات عام ١٣٣ ق.م) الذى كان مدافعا عن الشعب فى روما، أصدر قانوناً بتحديد ملكية الأرض وتوزيع الباقي على الفقراء فقتله خصومه، وجايوس الذى ناصر الفقراء وقتل أيضاً عام ١٢١ ق.م. وكلاهما من الأرستوقراطية الرومانية، وكلاهما أيضاً قتل في حوادث شغب!

أغسطس* ـ فى ظل حكم ملكى فعلى ـ بتدبير أعظم مأثرة فى التاريخ، ألا وهى ذلك السلام الرومانى الذى أرسى السلام فى الفترة من عام ٣٠ق.م إلى عام ١٨٠م بجميع أنحاء الإمبراطورية الممتدة من المحيط الأطلسى إلى نهر الفرات، ومن سكوتلاندا إلى البحر الأسود. وبعد وفاة أغسطس لطخت الملكية نفسها بالعار فى عهود كاليجولا ونيرون ودوميشيان. ولكن جاء بعد هؤلاء نرفا، وتراجان، وهادريان، وأنطونينوس بيوس، وماركوس أوريليوس، الذين سماهم رينان «أروع سلسلة من الملوك الممتازين العظماء عرفها العالم»(٥٣) «ولو أن رجلاً استدعى ـ كما قال جيبون ـ لتحديد الفترة التى كانت أحوال الجنس البشرى فيها أسعد الأحوال وأكثرها ازدهاراً لعيَّن بغير تردد تلك الفترة التى انقضت بين تولية نرفا ووفاة ماركوس أوريليوس. فعهودهم المتحدة تمثل ـ بأية حال ـ الفترة الوحيدة فى التاريخ التى كانت فيها سعادة شعب عظيم هدفاً فريداً للحكم»(٥٤) ففى ذلك العصر الرائع الذى غبط فيه رعايا روما أنفسهم على وجودهم فى ظل حكمها كانت الملكية بالاختيار، فلم

---

* جايوس أغسطس (٦٣ ق.م ـ ١٤م) أول إمبراطور رومانى، وابن ابن أخى يوليوس قيصر. استولى على السلطة بعد أن هزم أنطونى فى موقعة أكتيوم عام ٣١ ق.م. تميز عهده بالتوسع والحملات الحربية فى الخارج والإصلاحات الأخلاقية والاجتماعية فى الداخل. وكان راعياً للفن والأدب.

يكن الإمبراطور ينقل سلطته إلى ولده، وإنما إلى أقدر رجل يمكنه العثور عليه. وكان يتبنى هذا الرجل ويعدُّه ولده، ويدربه على مهام الحكم، ثم يتنازل له بالتدريج عن مقاليد السلطة. وأثبت هذا النظام نجاحه في التطبيق، ربما لأن تراجان وهادريان لم ينجبا أولاداً، ولأن أولاد أنطونينوس بيوس ماتوا في طفولتهم. أما ماركوس أوريليوس فكان له ولد، هو قومودوس، خلفه لأن الفيلسوف فشل في اختيار خلف آخر. وبعد قليل اعتلت الفوضى العرش وصارت ملكة*.

وقد كان للنظام الملكي في مجموعه سجل معتدل. فحروب الخلافة التي شنها عبر التاريخ جنت الشر على البشر بمقدار ما أضفاه عليهم استمرار الملكية أو «شرعيتها» من الخير. وحين تكون الملكية وراثية يغلب عليها أن تثمر من الغباء، ومحاباة الأقارب، والاستهتار، والتبذير، أكثر مما تثمر من النبل والشهامة أو فن الحكم. وكثيرا ما اتخذ لويس ١٤ مثالاً للملوك المحدثين، ولكن شعب فرنسا فرح بموته. ويبدو أن التعقيد الذى يميز الدول المعاصرة من شأنه أن يعطل أى عقل مفرد يحاول فهمه.

* يجب أن نضيف أن بعض المؤرخين يعد عصر الأنطونينيين «استجماع قوة غير ناجح» وقت اضمحلال روما. انظر : ج. توينبى: «دراسة للتاريخ» (لندن، ١٩٣٤ وما بعده) ج٤، ص٦٠ (هامش المؤلف).

من هنا كانت معظم الحكومات حكومات قلّة Oligarchies ـ تسيّرها أقلية. ويجرى اختيار هذه الأقلية إماَ بالميلاد كما فى الحكومات الأرستوقراطية، أو بالتنظيم الدينى كما فى الحكومات الدينية التى يتولاها رجال الدين Theocracies ، أو بالثروة كما فى الحكومات الديموقراطية. ومن غير الطبعى أن تحكم الأغلبية (حتى كما تصور روسو*) لأن الأغلبية نادراً ما يمكن تنظيمها من أجل عمل موحد ومحدد، فى حين أن الأمر ممكن فى حالة الأقلية. وإذا جمعت أغلبية القدرات فى أقلية من البشر فلا غنى عن حكومة الأقلية .مثلما لا غنى عن تركيز الثروة. ولا تستطيع الأغلبية أن تفعل شيئاً أكثر من الإطاحة دورياً بإحدى الأقليات وتولية أقلية أخرى. والأرستوقراطى الذى يمثل الاختيار السياسى بالميلاد يعد أعقل بديل للاختيار بالمال أو باللاهوت أو بالعنف. وتقوم الأرستوقراطية بسحب بضعة أشخاص من الصراع المضنى والفظ داخل المنافسة الاقتصادية، وتدريبهم على الحكم منذ مولدهم عن طريق القدوة والبيئة والوظائف الصغيرة. وهذه المهام تتطلب استعداداً خاصاً لا يمكن توافره فى أية أسرة أو بيئة عادية. وليست الأرستوقراطية دار حضانة لفن الحكم وحسب، وإنما هى أيضاً

* جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ٧٨) فيلسوف اجتماعى وسياسى فرنسى، كان يعتقد أن الانسان خيِّر وحر بالطبيعة، وأن حكمه يجب أن يعطى للأغلبية.

مستودع وأداة للثقافة والعادات والسلوك والمعايير والأذواق، وبذلك تقوم مقام الحاجز الحافظ للتوازن أمام البدع الاجتماعية أو مظاهر الخبل الأرستوقراطي أو التغيرات السريعة في القانون الأخلاقي. وانظر ما حدث في الأخلاق والعادات والسلوك والأسلوب والفن منذ الثورة الفرنسية.

لقد ألهمت الحكومات الأرستوقراطية الفن، وساندته، ووجهته، ولكن ندر أن أنتجته. فالأرستوقراطي ينظر إلى الفنانين على أنهم عمال يدويون. وهو يفضل فن الحياة على حياة الفن، ولا يفكر أبداً في أن ينزل إلى مستوى الكدح الاستنزافي الذي يشكل ثمن العبقرية عادة. وهو لا يقبل كثيرا على إنتاج الأدب، لأنه يظن أن الكتابة من أجل النشر عملية استعراضية وفن بيع. وكانت النتيجة، في الحكومات الأرستوقراطية الحديثة، مظهراً من مظاهر مذهب المتعة الطائشة المحبة للفنون، وعطلة مدى الحياة يتم خلالها الاستمتاع بمزايا المكان إلى أقصى حد، وتجاهل المسئوليات في كثير من الأحوال. وهذا هو سبب اضمحلال بعض الحكومات الأرستوقراطية. فقد مرت ثلاثة أجيال فقط بين عبارة «الدولة هي أنا» وعبارة «وبعدي الطوفان»*.

---

* عبارة «الدولة هي أنا» قالها لويس ١٤ (١٦٣٨ـ١٧١٥) وعبارة «بعدي الطوفان» وصحتها «وبعدنا الطوفان» قالتها مدام دي بومبادور (١٧٢١ـ٦٤) محظية لويس ١٥.

وهكذا نجد أن الخدمات التى أدتها الحكومة الأرستوقراطية لم تنقذها حين احتكرت الامتياز والسلطة بقوة وعزم أكثر من اللازم، واضطهدت الشعب بأنانية واستغلال قصير النظر، وأخّرت نمو الأمة بإدمان أعمى للأساليب السلفية، واستهلكت الناس وموارد الدولة فى الرياضة المتعجرفة التى مارستها فى حروب الأسر الحاكمة أو التوسع فى الأرض. وأدى ذلك إلى تكاتف المنبوذين وثورتهم ثورة عارمة. وارتبط الأغنياء الجدد بالفقراء فى مواجهة العوائق والأسن. وقطعت المقصلة المئات من رءوس النبلاء، وأخذت الديموقراطية دورها فى سوء حكم البشر.

هل يبرر التاريخ الثورات ؟

هذا موضوع جدل قديم، أحسن تصويره ذلك الانفصالُ الجرىء الذى قام به لوثر عن الكنيسة الكاثوليكية مقابل دعوة إرازموس* إلى الإصلاح الحليم المنظم، أو مساندة تشارلز جيمس فوكس** للثورة

---

* دزيديروس إرازموس (١٤٦٦ـ١٥٣٦) فيلسوف وعالم هولندى نادى بالإصلاح الدينى.

** تشارلز جيمس فوكس (١٧٤٩ـ١٨٠٦) أول وزير خارجية لبريطانيا. كان من أشد دعاة الحرية والإصلاح، ساند الاستقلال الأمريكى والثورة الفرنسية، ونادى بالسيادة للشعب.

الفرنسية، مقابل دفاع إدموند بيرك* عن «الحق المكتسب» والاستمرار. وفى بعض الحالات تتطلب المؤسسات البالية غير المرنة التقويض العنيف، كما حدث فى روسيا عام ١٩١٧. ولكننا نجد فى معظم الحالات أن الآثار التى تحدثها الثورة يمكن تحققها بدونها، من خلال الدفع التدريجي للتطورات الاقتصادية. وقد كان من الممكن لأمريكا أن تصبح العامل المسيطر فى العالم الناطق بالإنجليزية بدون أية ثورة. فقد أحلت الثورة الفرنسية محل الأرستوقراطية المالكة للأرض طبقة التجار المسيطرة على المال، وأتاحت لها سلطة الحكم. ولكن ثمة نتيجة مماثلة وقعت فى انجلترا خلال القرن ١٩ بدون إراقة دماء، وبدون تعكير للسلام العام. فقطع الصلة بالماضى على نحو حاد معناه ملاطفة الجنون الذى قد يلى صدمة الضربات أو التشويهات المفاجئة. وبما أن سلامة عقل الفرد تكمن فى استمرار ذكرياته فسلامة عقل الجماعة تكمن فى استمرار تقاليدها. وفى أى الحالتين نجد أن أى قطع فى السلسلة يؤدى إلى رد فعل عصابى، كما حدث فى مذابح باريس خلال شهر سبتمبر ١٧٩٢**.

* إدموند بيرك (١٧٢٩-٩٧) أديب وسياسي إنجليزى عارض تطرف الثورة الفرنسية وفكرة الصلح معها. وكان صديقاً لفوكس.

** انظر وصف تين الذى لا ينسى فى كتابه «الثورة الفرنسية» نيويورك، ١٩٣١، ج٢، ص ٢٠٩-٢٣٣ (هامش المؤلف) وتين المقصود هنا هو هيبوليت تين الناقد الفرنسى.

ولما كانت الثروة نظاماً ونهجاً للإنتاج والتبادل لا مجرد تكديس للسلع (القابلة للتلف فى الغالب) ولما كانت أيضاً ثقة (يمثلها **«نظام الائتمان»**) بالناس والمؤسسات، لا بالقيمة الفعلية للنقود الورقية أو الشيكات، فإن الثورات العنيفة لا تعيد توزيع الثروة بمقدار ما تدمرها. وقد تحدث إعادة تقسيم للأرض، ولكن عدم المساواة الطبعى بين البشر سرعان ما يؤدى إلى إعادة خلق لعدم المساواة فى الممتلكات والامتيازات، ويرفع إلى السلطة أقلية جديدة تتميز أساساً بذات الغرائز التى تتميز بها الأقلية القديمة. وما الثورة الحقيقية الوحيدة إلا تنوير العقل وتحسين الشخصية، وما التحرير الحقيقى الوحيد إلا تحرير الفرد، وما الثوريون الحقيقيون الوحيدون إلا الفلاسفة والقديسون.

لم تظهر الديموقراطية بالمعنى الدقيق للكلمة إلا فى العصور الحديثة، منذ الثورة الفرنسية عادة. فإذا أخذناها فى الولايات المتحدة بمعنى حق الاقتراع للذكور البالغين فقد بدأت فى عهد أندرو جاكسون*. وإذا أخذناها بمعنى حق الاقتراع للبالغين عموماً فقد بدأت فى شبابنا. وفى أتيكا القديمة كان عدد السكان ٣١٥ ألف

* أندرو جاكسون (١٧٦٧-١٨٤٥) جنرال أمريكى تولى رئاسة الولايات فى فترة : ١٨٢٩-٣٧.

نسمة. ومن هؤلاء ١١٥ ألفاً من العبيد، ٤٣ ألفاً من المواطنين الذين يملكون حق الانتخاب[٥٥]. واستبعدت من هذا الحق النساء، وجميع العمال وأصحاب الحوانيت والتجار والأجانب المقيمين تقريباً. وكانت أقلية المواطنين تنقسم إلى طائفتين: طائفة القلة وتتكون أساساً من الأرستوقراطية مالكة الأراضي والبورجوازية العليا، ثم الطائفة الديموقراطية التي تتكون من صغار ملاك الأراضي وصغار التجار والمواطنين الذين انحدروا إلى العمل بالأجر، وإن ظلوا محتفظين بحق الانتخاب. وفي عهد بركليس (٤٦٠ـ٤٣٠ ق.م) سادت الأرستوقراطية، وشهدت أثينا أزهى عصورها في الأدب والدراما والفن. وبعد وفاته، ولحاق الخزى بالأرستوقراطية من خلال هزيمة أثينا في حرب البيلوبونيز (٤٣١ـ٤٠٤ ق.م) اعتلت السلطة طبقةُ المواطنين السفلى Demos ، مما أثار الكثير من اشمئزاز سقراط وأفلاطون. وابتداء من تولى صولون* الحكم إلى الفتح الرومانى لليونان (عام ١٤٦ ق.م) استمر الصراع بين أنصار حكم القلة وأنصار الديموقراطية، وغذته الكتب والمسرحيات والخطب والأصوات الانتخابية والنفى بغير محاكمة والاغتيال والحرب

---

* صولون (٦٣٨ـ٥٥٨ ق.م) شاعر وسياسى ومشرع من حكماء اليونان السبعة. تولى عام ٥٩٤ ق.م.

الأهلية. ففي مدينة كورسيرا (كورفو حالياً) قامت حكومة القلة الحاكمة باغتيال ٦٠ من زعماء الحزب الشعبي عام ٤٢٧ ق.م. وأطاح الديموقراطيون بحكومة القلة، وحاكموا ٥٠ شخصاً من أنصارها أمام لجنة الأمن العام، ثم أعدموهم جميعاً، وأماتوا من الجوع مئات من سجناء الأرستوقراطية. وها هو وصف ثيوسيديدس* لهذه الأحداث يذكرنا بما حدث في باريس عامي ١٧٩٢ـ٩٣:

«على مدى سبعة أيام انهمك أهل كورسيرا في ذبح مواطنيهم الذين عدّوهم أعداء لهم... وأخذ الموت يتفشى بجميع أشكاله، وكما هي العادة في مثل هذه الأوقات لم يكن ثمة حد لم يصل إليه العنف. فقد قتل الآباء أبناءهم، وسحبت الضارعات من مذابح المعابد أو ذبحن فوقها ... وهكذا اتخذت الثورة مجراها الطبيعي من مدينة إلى أخرى. وأخذت الأماكن التي وصلت إليها في النهاية، بعد أن سمعت ما جرى من قبل، تفرط إلى حد بعيد ... في شناعة حوادث الانتقام التي ارتكبتها.. وقدمت كورسيرا أول نموذج لهذه الجرائم ... كما أفرطت في الثأر الذي انتزعه المحكومون (ممن لم يلقوا قط معاملة منصفة من

---

* ثيوسيديدس (٤٦٠ـ٣٩٩ ق.م) أول مؤرخ إغريقي ذو منهج علمي. ولد بأثينا، وشارك في حرب البيلوبونيز، وألف كتابه «التاريخ» كشاهد عيان ومتأمل في الأحداث.

حكامهم، أو لم يلقوا بالأحرى سوى العنف) و... التجاوزات الوحشية والمعدومة الرحمة التي هرع إليها الناس، وانغمسوا فيها، عن طريق شهواتهم ... وفي ذات الوقت هلك الجانب المعتدل من المواطنين بين الاثنتين (أى الطائفتين المتقاتلتين) ... وهكذا اضطرب العالم الإغريقي بأسره اضطراباً عنيفاً»(٥٦).

وفي كتابه «الجمهورية» جعل أفلاطون الناطق بلسانه، وهو سقراط، يدين ديموقراطية أثينا المنتصرة، ويصفها بأنها فوضى العنف الطبقي، والانحطاط الثقافي، والانحلال الأخلاقي. فالديموقراطيون:

«رفضوا باحتقار ضبط النفس، وعدّوه تخنثاً ... وسموا الغطرسة تهذيباً، والفوضى حرية، والخراب عظمة، والصفاقة شجاعة ... فالأب يعود نفسه على النزول إلى مستوى أبنائه، ويخيفهم. والابن يعتاد التساوى مع أبيه، بلا خجل أو خوف من والديه... والمعلم يخاف طلاب علمه ويتملقهم. وطلاب العلم يكرهون أساتذتهم ومعلميهم ... والشيوخ لا يحبون الظهور بمظهر نكدى المزاج ومحبى النفوذ، ولذا فهم يقلدون الشباب... ويجب ألا أنسى الحديث عن الحرية والمساواة عند الجنسين في علاقة أحدهما بالآخر... والمواطنون يغضبون،

نافدى الصبر، لأية لمسة من السلطة، وأخيرا ... يكفون عن الحرص حتى على القوانين المكتوبة أو غير المكتوبة ... وهذه هى البداية العادلة المجيدة التى تنبع منها الدكتاتورية (الطغاة) ... فالزيادة المفرطة فى أى شىء تؤدى إلى رد فعل فى الاتجاه المقابل ... ولا شك أن الدكتاتورية تنشأ من الديموقراطية، كما ينشأ أخطر أنواع الطغيان والعبودية من أشد أشكال الحرية تطرفا»(٥٧).

وعند وفاة أفلاطون (عام ٣٤٧ ق.م) كان تحليله العدائى لديموقراطية أثينا يقترب من التأكيد الواضح من جانب التاريخ. فقد استعادت أثينا ثروتها، ولكنها كانت عند ذاك ثروة تجارية أكثر منها ثروة أرض. وارتفع رجال الصناعة والتجارة والبنوك إلى قمة الكوم الذى أعيد خلطه. وأدى هذا التغيير إلى صراع محموم من أجل المال، أى بليونيثيا Pleonexia كما سماها الإغريق ـ وهى اشتهاء المزيد والمزيد. وبنى «الأغنياء الجدد»* (neoplutoi) قصوراً منيفة، مبهرجة، تنم عن ذوق سقيم، وزينوا نساءهم بغالى الثياب والجواهر، ودللوهن بعشرات الخدم، ونافس كل منهم الآخر فى إقامة الولائم التى أنعموا بها على ضيوفهم. واتسعت الفجوة بين

* تعبير «الأغنياء الجدد» nouveau riches فرنسى، يعنى الأغنياء الذين اغتنوا حديثاً، ولا سيما الذين يستعرضون غناهم ويتباهون به.

الأغنياء والفقراء، وانقسمت أثينا ـ على حد تعبير أفلاطون ـ إلى «مدينتين: مدينة للفقراء والأخرى للأغنياء، وكلاهما فى حرب ضد الأخرى»(٥٨) ودبر الفقراء الخطط لسلب الأغنياء عن طريق التشريع والضرائب والثورة. ونظم الأغنياء أنفسهم من أجل الوقاية من الفقراء. وأقسم أعضاء بعض منظمات القلة قسماً مقدساً كما يقول أرسطو : «سأكون خصماً للشعب (أى العامة) وسألحق به فى المجلس (النيابى) جميع ما أستطيع من شرور»(٥٩) وكتب إيزوقراطيس* نحو عام ٣٦٦ ق.م :

«لقد أصبح الأغنياء منطوين على أنفسهم إلى درجة أن الذين يملكون منهم أرضاً أو عقارا كانوا يفضلون أن تلقى ممتلكاتهم فى البحر على أن يمدوا يد العون إلى المحتاجين، فى حين أن الذين يعانون ظروفاً أفقر كان يسعدهم أن يستولوا على ممتلكات الأغنياء أكثر من أن يعثروا على كنز»(٦٠).

وقد سيطر المواطنون الفقراء على الجمعية العمومية، وبدأوا فى الاقتراع على تحويل أموال الأغنياء إلى خزائن الدولة، وإعادة توزيعها على الشعب من خلال المشروعات والإعانات الحكومية. وراح الساسة يقدحون ذكاءهم لاكتشاف مصادر جديدة للدخل العام.

---

* إيزوقراطيس (٤٣٦ ـ ٣٣٨ ق.م) خطيب وسياسى أثينى ناصر فكرة الوحدة اليونانية.

وكان نزع مركزية الثروة أكثر مباشرة في بعض المدن : قام المدينون في مدينة ميتيلين Mytilene بذبح دائنيهم جملة، وهاجم الديموقراطيون في مدينة أرجوس Argos الأغنياء، وقتلوا المئات منهم، وصادروا ممتلكاتهم. وترابطت الأسر الغنية سراً في المدن ـ الدول اليونانية المختلفة في عدائها من أجل التكافل المشترك ضد الثورات الشعبية. وبدأت الطبقات الوسطى، وكذلك الغنية، في نزع ثقتها بالديموقراطية وعدها نوعاً من الحسد ذى السلطة المفوضة، كما نزع الفقراء ثقتهم بها وعدوها نوعاً من المساواة الزائفة التي يبطلها عدم المساواة الفاغر الفم في الثروة. وبسبب المرارة المتزايدة في حرب الطبقات انقسمت اليونان داخلياً ودولياً عندما انقض عليها فيليب المقدوني عام ٣٣٨ ق.م، ورحب به كثيرون من اليونانيين الأثرياء وفضلوا مجيئه على الثورة. ثم اختفت الديموقراطية الأثينية في عهد الدكتاتورية المقدونية[٦١].

وقدم تاريخ روما دليلاً آخر على صحة تفسير أفلاطون للتطور السياسي، واختصاره إياه في تعاقب الملكية والأرستوقراطية والديموقراطية والدكتاتورية. فأثناء القرنين الثالث والثاني قبل ميلاد المسيح رتبت حكومة قلة في روما سياسة خارجية، وجيشاً نظامياً، وغزت عالم البحر المتوسط واستغلته. وبذلك امتصت الأرستوقراطية الرومانية الثروة التي اكتسبتها، ورفعت التجارة ـ التي تطورت ـ الطبقة الوسطى العليا إلى درجة الغنى الفاحش المترف. وجلب

اليونانيون والشرقيون والأفريقيون الذين فتحت بلادهم إلى إيطاليا للعمل كعبيد فى المزارع الكبيرة latifundia . ولما وجد الفلاحون من الأهالى أنهم أبعدوا عن أرضهم قاموا بالانضمام إلى البروليتاريا الضجرة المتكاثرة فى المدن، كى يتمتعوا بالإعانة الحكومية الشهرية ـ من القمح ـ التى قررها كايوس جراكوس للفقراء عام ١٢٣ ق.م. وكان الجنرالات والحكام العسكريون فى المستعمرات يعودون محملين بالغنائم لأنفسهم وللطبقة الحاكمة. وتكاثر المليونيرات. وحل المال السائل محل الأرض كمصدر للسلطة السياسية أو أداة لها. وتنافست الطوائف المتنازعة على شراء المرشحين والأصوات الانتخابية بالجملة. وفى عام ٥٣ ق.م تلقت جماعة من الناخبين عشرة ملايين سسترس* Sestrece على سبيل الدعم[٦٢]. وكلما فشل المال ظهر الاغتيال : كان المواطنون الذين يعطون أصواتهم للمرشح غير المطلوب يضربون ـ فى بعض الحالات ـ ضرباً يوشك على موتهم، وتحرق بيوتهم. وبهذا لم تشهد العصور القديمة حكومة بمثل ذلك الثراء والقوة والفساد[٦٣]. وقد ألزمت الأرستوقراطية بومبى** بالمحافظة على حقها فى تولى الحكم.

---

* السسترس عملة فضية رومانية تساوى القرش تقريباً.

** بومبى (١٠٦ ـ ٤٨ ق.م) قائد وسياسى رومانى أخضع قراصنة البحر المتوسط. واختلف مع قيصر فنشبت حرب أهلية هزم فيها، ثم هرب إلى مصر حيث قتل.

وراهنت عامة الشعب على قيصر.وحلت محنة المعركة محل المزايدة على النصر. وفاز قيصر، وأسس دكتاتورية شعبية. ولكن الأرستوقراطية قتلته، ثم انتهت إلى قبول دكتاتورية ابن أخي حفيده، وابن زوجته، أغسطس (عام ٢٧ ق.م) وبذلك انتهت الديموقراطية، وأعيدت الملكية، ودارت عجلة أفلاطون دورتها الكاملة.

ومن هذه الأمثلة التقليدية يمكن أن نستنتج أن الديموقراطية القديمة، التى تآكلت بالعبودية وفساد الذمة والحرب، لم تكن جديرة باسمها، ولا تقدم معياراً منصفاً لحكم الشعب. أما فى أمريكا فقد أتيحت للديموقراطية قاعدة أعرض. وبدأت بمزية التراث البريطانى : القانون الأنجلوسكسونى الذى وقف مع المواطنين ضد الدولة منذ صدور الماجنا كارتا، والمذهب البروتستنتى الذى فتح الطريق للحرية الدينية والعقلية. ولم تكن الثورة الأمريكية ثورة أبناء مستعمرة على حكومة بعيدة عنهم وحسب، وإنما كانت أيضاً انتفاضة لطبقة وسطى من الأهالى ضد أرستوقراطية مستوردة. وأدت وفرة الأرض المجانية والحد الأدنى من التشريع إلى تسهيل الثورة والإسراع بها. فقد سيطر مالكو الأرض الذين يحرثونها (وفى حدود الطبيعة) على الظروف التى عاشوا فى ظلها، وكانت لديهم المكانة الاقتصادية اللازمة للحرية السياسية. وهؤلاء أنفسهم هم الذين جعلوا

جيفرسون رئيساً ـ جيفرسون الذى كان مثل فولتير فى تشككه، وروسو فى ثوريته. وهيئت الحكومة التى تَحكُم أقل ما يُحكم، على نحو يثير الإعجاب، لتحرير تلك الطاقات الفردية التى حولت أمريكا من تيه إلى يوتوبيا مادية، ومن الطفلة والقاصر إلى منافس أوروبا الغربية والوصى عليها. وبينما دعمت العزلة الريفية حرية الفرد أتاحت العزلة الوطنية الحرية والأمن داخل حدود البحار الواقية. وهذه الظروف وكثير غيرها أتاحت لأمريكا ديموقراطية أكثر أساسية وعمومية من أية ديموقراطية شهدها التاريخ.

لقد اختفى الكثير من هذه الظروف التأسيسية. فقد ذهبت العزلة الشخصية من خلال نمو المدن. وذهب الاستقلال الشخصى من خلال اعتماد العامل على أدوات ورأسمال لا يملكها، وظروف لا يستطيع التحكم فيها. وصارت الحرب أكثر استنزافاً، وعجز الفرد عن فهم أسبابها أو الهروب من آثارها. وذهبت الأرض المجانية، برغم انتشار ملكية البيوت ـ على الحد الأدنى من الأرض. ووقع صاحب الدكان الذى كان مستقلاً من قبل فى شراك الموزع الكبير، ولعله ردد شكوى ماركس من أن كل شىء واقع فى الأغلال. فالحرية الاقتصادية، حتى بين الطبقات الوسطى، يتزايد طابعها الاستثنائى، مما يجعل الحرية السياسية ذريعة للمواساة. ولم يتحقق هذا كله من

خلال فساد الأغنياء (كما كنا نظن فى عنفوان شبابنا) وإنما من خلال الجبرية المجردة للتطور الاقتصادى، وكذلك من خلال طبيعة الإنسان. فكل تقدم فى تعقيد الاقتصاد يشجع القدرة الممتازة ويساعد عليها، ويكثف تركيز الثروة والمسئولية والسلطة السياسية.

والديموقراطية هى أصعب أشكال الحكم جميعاً، لأنها تستلزم أوسع انتشار للذكاء. وقد نسينا أن نجعل أنفسنا أذكياء عندما جعلنا أنفسنا أسياداً. وها هو التعليم ينتشر، ولكن الذكاء يتأخر على الدوام بفعل قدرة الجهلاء على الإنجاب. وقد لاحظ أحد الخبثاء أن «من الواجب ألا نخلع الجهل عن عرشه لأنه متوافر كثيراً» ومع ذلك، لا يطول خلع الجهل عن عرشه، لأنه يستسلم للتلاعب على أيدى القوى التى تشكل الرأى العام. ولعله من الصواب، كما افترض لينكولن، أن «يصعب عليك استغفال الناس طول الوقت» ولكنك تستطيع أن تستغفل منهم ما يكفى لأن تحكم بلداً كبيراً.

هل الديموقراطية مسئولة عن الهبوط الحالى فى الفن؟

لا شك أن هذا الهبوط ليس بمنأى عن المناقشة. فالأمر يرجع إلى الحكم الشخصى على الأشياء. ولا شك أن أولئك الذين يرجفون من تجاوزات الفن ـ لُطخ ألوانه التى بلا معنى، وتلصيقاته للأنقاض، وبلبلات نغماته المتنافرة ـ سجناء فى ماضينا، ومتبلدو

الحواس إزاء شجاعة التجربة. فالذين ينتجون مثل هذا الهراء لا يخاطبون الجمهور العام ـ الذى يحتقرهم، ويصفهم بأنهم مخبولون، أو منحرفون أو دجالون ـ وإنما يخاطبون المشترين السذج من أبناء الطبقة الوسطى الذين ينوّمهم دلالو المزادات تنويماً مغناطيسياً، ويستثيرهم كل جديد مهما كان مشوهاً. ولا يمكن أن تكون الديموقراطية مسئولة عن هذا الانهيار، إلاّ بمعنى أنها عجزت عن تطوير معايير وأذواق تحل محل تلك المعايير والأذواق التى حفظت بها الأرستوقراطيات خيال الفنانين وفردانيتهم، فيما مضى، داخل حدود الاتصال المفهوم، وتنوير الحياة، وانسجام الأجزاء فى تسلسل منطقى وكلى مترابط. وإذا بدا الفن اليوم ضائعاً فى ألوان من الغرائب فليس ذلك لأن الإيحاء أو السيطرة الجماهيرية ابتذلته وحسب، وإنما لأنه ـ أيضاً ـ استنزف إمكانات المدارس والأشكال القديمة، وراح يتخبط فترة باحثاً عن قوالب وأساليب جديدة، وقواعد وضوابط مستحدثة.

لقد تمت جميع الاستنتاجات، وها هى الديموقراطية أدت إلى ضرر أقل، وخير أكبر، مما أدى إليه أى شكل آخر من أشكال الحكم. وأضفت على الوجود الإنسانى نكهة وحميمية ترجحان على أخطارها وعيوبها. وأضفت على الفكر والعلم والمغامرة الحرية

التى لا غنى عنها فى نشاطها ونموها. وحَطَّمت أسوار الامتياز والطبقة، وأنهضت فى كل جيل القدرة من كل طبقة ومنزلة. وفى ظل تشجيعها صارت أثينا وروما أكثر المدن إبداعاً فى التاريخ، وأتاحت فى أمريكا على مدى قرنين وفرة لنسبة كبيرة غير مسبوقة من سكانها. وقد وقفت نفسها اليوم بعزم وتصميم على نشر التعليم ومده، وصيانة الصحة العامة. وإذا أمكن إقرار المساواة فى فرص التعليم فسوف تصبح الديموقراطية عند ذاك حقيقية ولها مبررها. وذلك لأن هذه هى الحقيقة الأساسية التى تكمن تحت شعاراتها. فمع أن الناس لايمكن أن يتساووا إلاَّ أن سبيلهم إلى التعليم وفرص الحياة يمكن أن تتساوى تقريباً أكثر من ذى قبل. وحقوق الإنسان ليست حقوقه فى الوظيفة والسلطة، وإنما هى حقوق دخوله كل طريق يمكن أن يغذى صلاحيته للوظيفة والسلطة وأن يختبرها. فالحق ليس هبة من الله أو من الطبيعة، ولكنه امتياز يضفى الخير على الجماعة إذا تمتع به الفرد.

وتعد الديموقراطية اليوم فى إنجلترا، والولايات المتحدة، والدنمارك، والسويد، وسويسرا، وكندا، أكثر رسوخاً وسلامة. وقد دافعت عن نفسها بشجاعة وحمية ضد هجمات الدكتاتوريات الأجنبية، ولم تذعن حتى اليوم للدكتاتورية فى الداخل. ولكن إذا

استمرت الحرب فى امتصاصها والسيطرة عليها، أو إذا تطلبت شهوة حكم العالم مؤسسة عسكرية ضخمة، وتخصيص الأموال لها، فإن الحريات التى تتيحها الديموقراطية قد تستسلم واحدة بعد الأخرى للتدريب على الأسلحة والنزاع السياسى. وإذا قسّمَنا الجنس أو الحرب الطبقية إلى معسكرات عدائية، وإذا حولنا الجدل السياسى إلى كراهية عمياء، فقد يطيح جانب أو آخر فينا بالمنابر الانتخابية مستخدماً حكم السيف. وإذا عجز اقتصادنا القائم على الحرية عن توزيع الثروة بذات الكفاءة التى خلقها بها فسوف تنفتح الطريق إلى الدكتاتورية أمام أى شخص يستطيع أن يَعد الجميع بالأمن على نحو مقنع. وعندئذ سوف يغمر العالم الديموقراطىّ حكمٌ عسكرى فى ظل أية عبارات جذابة.

١١ـ التاريخ والحرب

الحرب أحد ثوابت التاريخ، لم تتناقص مع الحضارة والديموقراطية. فمن بين السنوات الحادية والعشرين بعد الثلاثة آلاف والأربعمائة سنة الأخيرة من التاريخ المسجل لا توجد سوى ٢٦٨ سنة بغير حرب.ومن المسلّم به أن الحرب في الوقت الراهن هي الشكل النهائي للمنافسة والانتخاب الطبعي في الجنس البشرى. وقد قال هرقليطس* إن «الحرب هي أبو كلّ شيء» Polemos pater panton . فالحرب، أو المنافسة، أبو كل شيء، وهي الأصل الفعال للأفكار، والمخترعات، والمؤسسات، والدول. أما السلام فهو توازن غير مستقر، لا يمكن المحافظة عليه إلا بالتفوق المقبول أو القوة المعادلة.

* هرقليطس (نحو ٥٤٠ـ٤٧٥ ق.م) فيلسوف يوناني من مدينة إفسوس (موقع مدينة أزمير التركية) اكتشف مبدأ التغير في الظواهر. عاش في عصر ثورة اجتماعية. وفي ذلك العصر بدأت الأرستوقراطية في التخلي عن الحكم للديموقراطية.

وأسباب الحرب هى ذاتها أسباب المنافسة بين الأفراد: نزعة التملك، والمشاكسة، والغرور. وهذه الأسباب هى الرغبة فى الطعام والأرض والمواد الخام والوقود والسيادة. والدولة عندها ما عندنا من الغرائز، ولكن ليس عندها الكوابح التى عندنا. فالفرد يذعن للكوابح التى تفرضها عليه الأخلاق والقوانين، ويقبل استبدال الخلاف بالحوار، لأن الدولة تضمن له الحماية الأساسية فى حياته وممتلكاته وحقوقه الشرعية. والدولة ذاتها لا تسلم بأية كوابح جوهرية، إما لأنها من القوة بحيث تتحدى أى تدخل فى إرادتها أو لعدم وجود دولة عليا توفر لها الحماية الأساسية، وعدم وجود قانون دولى أو دستور أخلاقى يتمتع بسلطة تنفيذية ناجحة.

من ناحية الفرد نجد أن الغرور يكسبه قوة إضافية فى منافسات الحياة. ومن ناحية الدولة نجد أن النزعة الوطنية تكسبها قوة إضافية فى الدبلوماسية والحرب. فعندما حررت دول أوربا نفسها من سلطان البابوية وحمايتها شجعت كل دولة النزعة الوطنية، وعدّتها ملحقاً لجيشها وأسطولها. وكانت إذا توقعت نزاعاً مع بلد معين راحت تثير فى شعبها الكراهية لذلك البلد، وتصوغ الشعارات كى تصل بهذه الكراهية إلى نقطة مميتة، فى الوقت الذى تؤكد فيه على حبها للسلام.

ولم تحدث عملية تجنيد البشر في خدمة وسواس الخوف من الدول الأخرى إلا في أشد النزاعات جوهرية. ونادراً ما التجأت إليها أوروبا في الفترة الواقعة بين الحروب الدينية في القرن ١٦ وحروب الثورة الفرنسية. وفي تلك الفترة أتيح لشعوب الدول المتنازعة أن يحترم كل منها منجزات الآخر وحضارته. فقد ساح الإنجليز بأمان في فرنسا وقت أن كانت الأخيرة في حرب مع انجلترا. واستمر الفرنسيون وفردريك الأكبر* في تبادل الإعجاب في الوقت الذى تقاتلوا فيه في حرب السنوات السبع. وفي القرنين ١٧، ١٨ كانت الحرب مباراة بين النظم الأرستوقراطية لا بين الشعوب. ولكن التقدم الذى أحرزته الاتصالات والنقل والأسلحة ووسائل التلقين في القرن ٢٠ جعل الحرب صراعاً بين الشعوب، يشغل المدنيين والمقاتلين سواء بسواء، ويحقق النصر من خلال التدمير الشامل للممتلكات والحياة. فحرب واحدة تستطيع اليوم أن تدمر جهد قرون في بناء المدن، وإبداع الفن، وتطوير عادات الحضارة. والحرب اليوم ـ إذا شئنا عزاء تبريرياً ـ تنشر العلم والتكنولوجيا اللذين قد تؤدى مخترعاتهما المميتة، فيما بعد، إلى زيادة منجزات السلام

---

* فردريك الأكبر (١٧١٢ـ٨٦) ملك بروسيا الذى حقق حكماً متقدماً وانتصارات كبيرة.

المادية، إذا لم تذهب هذه المخترعات طي النسيان داخل حالة الفقر المدقع والبربرية العامة.

لقد سخر الجنرالات والحكام في كل قرن (مع استثناءات نادرة مثل أشوكا* وأغسطس) من الكراهية الرعديدة التي يبديها الفلاسفة نحو الحرب. فالحرب في التفسير العسكري للتاريخ هي الحكَم الأخير، يتقبلها الجميع كشيء طبعي وضروري، باستثناء الجبناء والسذج. فما الذي صان فرنسا وإسبانيا عن أن تصبحا مسلمتين غير انتصار شارل مارتل** في موقعة تور (عام ٧٣٢)؟ وماذا كان سيحدث لتراثنا القديم لو لم يحمه السلاح ضد غزوات المنغول والتتار؟ إننا نسخر من القواد الذين يموتون في فراشهم (وننسى أنهم أثمن كأحياء من كونهم أمواتا) ولكننا نقيم لهم التماثيل عندما يتحولون إلى هتلر آخر أو جنكيزخان آخر. ومما يرثى له (كما يقول

---

* أشوكا (٢٧٣-٢٣٢ ق.م) إمبراطور هندى صاحب فتوحات كثيرة. اعتنق البوذية فشعر بالخجل من فتوحاته، وتنسك، وكره الحرب، وراح يدعو للبوذية حتى وفاته.

** شارل مارتل قائد الفرنكة، أو الفرنجة، الذى هزم جيوش المسلمين الزاحفين من إسبانيا بقيادة عبد الرحمن الغافقى فى الموقعة المذكورة، أو بلاط الشهداء كما سماها المؤرخون العرب. وفيها استشهد الغافقى، وارتد المسلمون عن جنوب فرنسا.

الجنرال) أن يموت الكثير من الشباب فى ساحة القتال، ولكن الذين يموتون منهم فى حوادث السيارات أكثر ممن يموتون فى الحرب. وكثيرون منهم يشاغبون ويفسدون بسبب نقص النظام والانضباط. فهم يريدون متنفساً لنزعة القتال عندهم، وروح المغامرة، وسأمهم من الروتين الممل. وإذا كان لا بد أن يموتوا آجلاً أو عاجلاً فلماذا لا ندعهم يموتون من أجل وطنهم فى خدار المعارك وشذا المجد؟ بل إن الفيلسوف، إذا كان على دراية بالتاريخ، سوف يسلم بأن السلام الطويل الأمد قد يضعف ـ بصورة قاتلة ـ العضلات العسكرية للأمة. وفى حالة العجز الحالى فى القانون والعواطف الدولية يجب على الأمة أن تكون مستعدة فى أية لحظة للدفاع عن نفسها. وإذا دخلت مصالحها الأساسية فى الموضوع فلا بد من السماح لها باستخدام أية وسيلة تراها ضرورية لبقائها. فالوصايا العشر يجب أن تصمت إذا صارت المحافظة على النفس فى خطر.

ومن الواضح (هكذا يستطرد الجنرال) أن الولايات المتحدة يجب أن تتخذ اليوم المهمة التى اضطلعت بها بريطانيا العظمى ببراعة كبيرة فى القرن ١٩ ـ أى حماية الحضارة الغربية من الخطر الخارجى.

أعلنت الحكومات الشيوعية، المسلحة بمعدلات المواليد القديمة والأسلحة الجديدة، عن تصميمها مرارا وتكراراً على تدمير اقتصاد الدول غير الشيوعية واستقلالها. وتأثرت الأمم الجديدة، المتطلعة إلى ثورة صناعية توفر لها الثروة الاقتصادية والقوة العسكرية، بعملية التصنيع السريعة فى روسيا تحت الإدارة الحكومية. وربما تكون الرأسمالية الغربية أكثر إنتاجية فى النهاية، ولكنها أبطأ فى النمو والتطور. ويبدو أن الحكام الجدد، المشغوفين بالسيطرة على موارد دولهم وقوتها البشرية، فريسة جذابة للدعاية الشيوعية، والتسلل والتخريب الشيوعيين. وما لم يوضع حد لهذه العملية المتفشية فستكون المسألة مسألة وقت بالنسبة لسقوط آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية كلها تقريباً فى قبضة الزعامة الشيوعية، وإحاطة استراليا ونيوزيلندا وأمريكا الشمالية وأوروبا الغربية بالأعداء من كل جانب. ولك أن تتخيل تأثير هذه الحالة على اليابان والفيليبين والهند، وكذلك على الحزب الشيوعى القوى فى إيطاليا. وتخيل التأثير الذى يمكن أن يحدثه انتصار الشيوعيين فى إيطاليا على الحركة الشيوعية فى فرنسا. عند ذاك ستقع بريطانيا العظمى والدول الاسكندينافية وهولندا وألمانيا الغربية تحت رحمة قارة تسودها الشيوعية. فهل تقبل أمريكا الشمالية ــ وهى اليوم فى أوج قوتها ــ حتمية مثل هذا المستقبل، فتنسحب إلى داخل حدودها، وترضخ لإحاطة دول

عدائية تتحكم فى سبيلها إلى المواد الخام والأسواق، وتجبرها على تقليد أعدائها - مثل أى شعب محاصر - وتأسيس دكتاتورية حكومية على جميع وجوه حياتها التى تمتعت بالحرية وإثارة الحوافز؟ وهل يجب على زعماء أمريكا ألا يفكروا فى شيء سوى نفور هذا الجيل الأبيقورى* من مواجهة قضية كبيرة كهذه، أم يجب عليهم أن يفكروا أيضاً فيما سوف تتمناه الأجيال المقبلة من الأمريكيين على أيديهم؟ أليس الأحكم أن نقاوم على الفور، وأن ننقل الحرب إلى معسكر العدو، وأن نحارب على أرض أجنبية، وأن نضحى إذا لزم الأمر بمائة ألف من الأرواح الأمريكية، وربما بمليون من غير المقاتلين، لا لشيء إلا لكى نتيح لأمريكا أن تعيش حياتها فى أمن وحرية؟ أليست هذه السياسة البعيدة النظر متسقة تمام الإتساق مع دروس التاريخ؟

يجيب الفيلسوف: أجل، وسوف تتسق النتائج المروعة مع التاريخ، باستثناء أنها سوف تتضاعف بالنسبة لزيادة عدد القوات المقاتلة وقدرتها على التحرك، والقوة التدميرية غير المسبوقة للأسلحة المستخدمة. ولكن ثمة ما هو أكبر من التاريخ وأعظم. فباسم

* نسبة إلى أبيقور (٣٤١-٢٧٠ ق.م) الفيلسوف الإغريقى صاحب مذهب اللذة والمتعة كفضيلة أسمى. والصفة هنا تعنى الانغماس فى الملذات الحسية.

الإنسانية يجب علينا أن نتحدى ألف سابقة شريرة، فى مكان ما، فى وقت ما، وأن نجرؤ على تطبيق القاعدة الذهبية على الأمم، مثلما فعل الملك البوذى أشوكا (عام ٢٦٢ ق.م)[٦٤] أو نقوم على الأقل بما قام به أغسطس حين دعا طيبريوس إلى الكف عن غزو ألمانيا (عام ٩م)[٦٥] . فلنرفض، مهما كلفنا ذلك، أن نصنع مائة هيروشيما فى الصين. وقد قال إدموند بيرك «إن الشهامة فى السياسة ليس من النادر أن تكون أصوب حكمة، فالإمبراطورية العظيمة لا تتفق مع العقول الصغيرة»[٦٦] وتخيل رئيساً أمريكياً يقول لزعماء الصين وروسيا :

«إذا وجب علينا أن نتّبع المجرى المألوف للتاريخ فيجب أن نشن الحرب عليكم، خوفاً من أن تشنوها علينا بعد جيل. أو يجب أن نأخذ بالسابقة المؤسفة التى حققها التحالف المقدس* عام ١٨١٥، فنوقف ثروتنا وخيرة شبابنا على قمع أية ثورة ضد النظام الكائن فى أى مكان. ونحن نكن الاحترام لشعوبكم وحضاراتكم، ونعدها من أكثر الشعوب والحضارات طاقة على الإبداع فى التاريخ. وسنحاول أن نفهم مشاعركم ورغبتكم فى تطوير مؤسستكم بلا خوف من

* التحالف المقدس إعلان يقوم على المبادئ المسيحية أصدرته النمسا وبريطانيا وروسيا عام ١٨١٥ لحماية أوروبا عقب سقوط نابليون بونابرت.

أى هجوم. ويجب ألا نسمح لمخاوفنا المشتركة بأن تقودنا إلى الحرب، لأن طاقة الهلاك الفريدة التى تتمتع بها أسلحتنا وأسلحتكم تضفى على وضعنا عنصراً لم يألفه التاريخ. ونقترح أن نرسل ممثلين كى ينضموا إلى ممثليكم فى مؤتمر دائم من أجل تسوية خلافاتنا، ووقف أعمال العداء والتخريب، وتخفيض أسلحتنا. وحيثما نجد أنفسنا فى منافسة معكم ـ خارج حدودنا ـ على ولاء شعب من الشعوب، سنكون على استعداد للإذعان للاقتراع الكامل والعادل من جانب الشعب المذكور. فلنفتح أبوابنا لكل منا، ولنرتب ألوان التبادل الثقافى التى تشيع التقدير والفهم المشتركين. ونحن لا نخشى أن يحل نظامكم الاقتصادى محل نظامنا، ولستم بحاجة إلى الخوف من أن يحل نظامنا محل نظاكم. فنحن نؤمن بأن كل نظام سيتعلم من الآخر، ويقدر على معايشته فى تعاون وسلام. وربما استطاع كل منا، وهو يقيم دفاعاته الملائمة، أن يرتب معاهدات عدم اعتداء وتدمير مع الدول الأخرى. ومن هذه الاتفاقيات يتشكل نظام دولى تحتفظ فيه كل أمة بسيادتها وفرديتها، ولا يتقيد إلا بالاتفاقات التى توقعها كل منها عن طيب خاطر. ونحن نطلب منكم الانضمام إلينا فى هذا التحدى للتاريخ، هذا العزم على مدّ الكياسة والحضارة بحيث تشملان العلاقات بين الدول. ونتعهد أمام جميع البشر بالدخول فى هذا المشروع بكامل الإخلاص والثقة.

وإذا خسرنا فى هذه المقامرة التاريخية فلايمكن أن تكون النتائج أسوأ من تلك التى نتوقعها من استمرار السياسات التقليدية. وإذا نجحنا، نحن وأنتم، فسوف نستحق مكاناً ـ طوال قرون مقبلة ـ فى ذاكرة البشرية الشاكرة للجميل».

غير أن الجنرال يبتسم، ويقول:

«لقد نسيت جميع دروس التاريخ وما يتعلق بطبيعة الإنسان مما صورته. فبعض النزاعات من الجوهرية بحيث تستعصى على المفاوضة. وخلال المفاوضات الطويلة (إذا استرشدنا بالتاريخ) سوف يستمر التخريب والتدمير. والنظام العالمى لا يتحقق باتفاقية جنتلمان تقوم على كلمة الشرف، وإنما يتحقق من خلال انتصار إحدى الدول العظمى انتصاراً يكون من الحسم بحيث يمكنها من فرض القانون الدولى وتنفيذه، مثلما فعلت روما ابتداء من أغسطس إلى أورليوس. ومثل هذه الفواصل من السلام الواسع المدى غير طبعية، وإستثنائية. فسرعان ما تنتهى بالتغيرات فى توزيع القوة العسكرية. وقد قُلْتَ لنا إن الإنسان حيوان تنافسى، وإن الدول التى يقيمها يجب أن تكون على شاكلته، وإن الانتخاب الطبعى قائم اليوم على صعيد دولى. والدول لا تتحد وتتعاون تعاوناً جوهرياً إلا حين تتعرض على نحو مشترك للهجوم من الخارج. ولعلنا اليوم نتحرك قلقين صوب

ذلك المستوى الأعلى فى المنافسة. وقد نقيم علاقة مع جنس طموح على الكواكب أو النجوم الأخرى. وبعدها سرعان ما تنشب حرب بين الكواكب.

وعند ذاك، عند ذاك وحسب، سوف نتحد نحن أهل هذه الأرض» .

١٢ـ التطور والتحلل

سبق أن عرفنا الحضارة بأنها «نظام اجتماعى يقوم بنشر الإبداع الثقافى»[٦٧] وهى نظام سياسى مصون من خلال العرف والأخلاق والقانون، ونظام اقتصادى مصون من خلال استمرار الإنتاج والتبادل. وهى إبداع ثقافى من خلال الحرية وتسهيلات إنشاء الأفكار والآداب والأساليب والعادات والفنون، والتعبير عنها، واختبارها، وتثميرها. وهى نسيج متشابك ومعقد وغير ثابت من العلاقات الإنسانية، نسيج يتسم بالجهد فى صنعه والسهولة فى تدميره.

لماذا يمتلىء التاريخ بركام أنقاض الحضارات، ويبدو كأنه يقول لنا، مثل ما قالت قصيدة «أوزيماندياس»* لشيللى، إن الموت مصير

---

* أوزيماندياس قصيدة مشهورة للشاعر الإنجليزى برسى شيللى (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) تناول فيها موضوع الحضارات القديمة من خلال ملك إغريقى بهذا الاسم.

جميع الحضارات؟ هل ثمة ألوان من التواتر، فى عملية التطور والتحلل هذه، تمكننا من التنبؤ بمستقبل حضارتنا من واقع مسار حضارات الماضى؟

هذا ما تصورته عقول معينة، واسعة الخيال، إلى حد التنبؤ بالمستقبل على وجه التفصيل. فقد قال فرجيل* فى «نشيد الرعاة الرابع» إن العالم بأسره سوف يسقط يوماً ما، عن قصد أو مصادفة، فى حال مطابقة لما حدث فى بعض العصور القديمة المنسية، ثم يكرر جميع الحوادث التى تلت تلك الحال من قبل، بحتمية جبرية وتفصيل دقيق:

> سيظهر طيفوس (نبى) آخر، ويقوم أرجو آخر بحمل جميع الأبطال الأعزاء (جاسون وسواه). وستنشب حروب أخرى، ويُرْسَل أخيل العظيم مرة ثانية إلى طروادة[٦٨].

وقد جُنَّ فردريش نيتشه** بفكرة «التواتر الأزلى» هذه. وإذا كان لا يوجد شىء بمثل هذا السخف فمن الممكن وجوده فى الفلاسفة.

---

* فرجيل (٧٠-١٩ ق.م) أشهر شاعر رومانى كان أول آثاره بعنوان «أناشيد الرعاة» وهى عشر قصائد مزج فيها موضوعات قديمة إغريقية وأخرى سياسية وأدبية معاصرة له.

** نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) فيلسوف ألمانى اشتهر بفلسفة الإنسان المتفوق.

إن التاريخ يكرر نفسه، ولكن هذا التكرار ليس إلا في المجمل والصورة العامة. ولعل من صواب التفكير أن نتوقع في المستقبل ـ كما حدث في الماضي ـ صعود بعض الدول الجديدة، وهبوط بعض الدول القديمة، وكذلك نتوقع أن تبدأ حضارات جديدة بالمراعى والزراعة، وتتوسع في التجارة والصناعة، وتزخم بالمال، وأن يتدرج الفكر بشكل عام (على نحو ما حاول فيكو وكونت* أن يثبتا) من التفسيرات الخارقة إلى الخرافية إلى الطبعية، وأن تقوم النظريات والمخترعات والمكتشفات والأخطاء الجديدة بإثارة التيارات الفكرية، وأن تتمرد الأجيال الجديدة على القديم، وتتدرج من العصيان إلى الخضوع إلى التفاعل، وأن تحرر التجارب في الأخلاق التقاليد وتخيف المنتفعين بها، وأن تذهب حماسة الابتكار طى النسيان في لا مبالاة الزمن. والتاريخ يكرر نفسه على نطاق واسع، لأن الطبيعة البشرية تتغير بروية جيولوجية، والإنسان مجهز كي يستجيب بطرق ثابتة للمواقف والدوافع المتكررة الحدوث، مثل الجوع والخطر والجنس. ولكننا نجد الأفراد في الحضارة المتطورة

* جيامباتيستا فيكو (١٦٦٨ـ١٧٤٤) فيلسوف ومؤرخ إيطالى نادى بنظرية التغير التاريخي على أساس ثلاث مراحل هي: البربرية والبطولة والعقل. أما أوجست كونت (١٧٩٨ـ١٨٥٧) ففيلسوف فرنسي اشتهر بالفلسفة الوضعية ونظرية الحالات الثلاث المذكورة.

والمعقدة أكثر تفاضلاً وتفرداً من نظرائهم فى المجتمع البدائى، كما نجد مواقف كثيرة تحتوى على ظروف جديدة تستلزم تعديلات فى الاستجابة الفطرية. وهكذا يتقلص العرف، وينتشر التفكير المنطقى. وليس ثمة يقين بأن المستقبل سيكرر الماضى. فكل سنة جديدة ليست سوى مغامرة جديدة.

لقد سعى بعض أصحاب العقول المتفوقة إلى تقييد الظواهر المطردة الطليقة فى التاريخ ووضعها فى صيغ مهيبة. فقد قام مؤسس الاشتراكية الفرنسية، كلود ـ هنرى دى روفروا، أو الكونت دى سان سيمون (١٧٦٠ـ١٨٢٥) بتقسيم الماضى والمستقبل إلى نوع من التعاقب بين فترة «عضوية» وأخرى «نقدية» وقال:

«يكشف قانون التطور البشرى... عن حالتين فى المجتمع تتميزان بالوضوح والتعاقب: الأولى هى العضوية، وفيها تخضع جميع الأفعال البشرية للتصنيف والتنبؤ والضبط عن طريق نظرية عامة، والأخرى هى النقدية، وفيها تتوقف جماعة الفكر بأسرها عن نشاطها، كما تتوقف جميع الأعمال المشتركة، وجميع أنواع التساوى، ولا يصبح المجتمع إلا كتلة من الأفراد المنفصلين الذين ينازع كل منهم الآخر.

وقد احتلت كل من هاتين الحالتين، أو الحالين، فترتين من التاريخ. فالفترة العضوية سبقت تلك الحقبة الإغريقية التى نسميها عصر الفلسفة، والتى سنكون أكثر إنصافاً حين نسميها عصر النقد. ثم ظهر بعد ذلك مبدأ جديد، مرّ بمراحل مختلفة من الإتقان والاستكمال، ثم أسس فى النهاية سلطانه السياسى على الحضارة الغربية. ولما تأسست الكنيسة بدأت حقبة عضوية جديدة، وانتهت فى القرن ١٥ عندما أذاع المصلحون الدينيون وصول عصر النقد ذاك الذى استمر حتى وقتنا هذا...

فى العصور العضوية كانت جميع المشكلات الأساسية (اللاهوتية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية) تجد حلولاً مؤقتة على الأقل. ولكن سرعان ما حكم عليها التقدم الذى تحقق بمساعدة هذه الحلول، وفى ظل المؤسسات التى ظهرت من خلالها، بأنها غير كافية، ودعا إلى بدع جديدة. وكانت الفترات النقدية ـ هى فترات الجدل والاحتجاج ... والانتقال ـ تستبدل بالمزاج القديم الشك والفردية وعدم الاكتراث بالمشكلات الكبيرة ... أما فى الفترات العضوية فينشغل الناس بالبناء. وأما فى الفترات النقدية فينشغلون بالهدم»[٦٩].

وكان سان سيمون يعتقد أن تأسيس الاشتراكية سيكون فاتحة

عصر عضوى جديد من الإيمان المتحد والتنظيم والتعاون والاستقرار. وإذا أثبتت الشيوعية أنها نظام الحياة الجديد المنتصر لكان ذلك تبريراً لتحليل سان سيمون وتنبؤه.

خالف أوزفالد شبنجلر* (١٨٨٠ـ١٩٣٦) مشروع سان سيمون بتقسيم التاريخ إلى حضارات منفصلة، لكل منها عُمر ومَسار من أربعة فصول، ولكن هذه الفصول تتألف أساساً من فترتين : فترة من التنظيم ذى الجاذبية نحو المركز تتولى توحيد الثقافة بجميع مراحلها فى شكل فريد ومتماسك وفنى. وفترة أخرى من الاختلال ذى الطرد من المركز، تفسد فيها العقيدة والثقافة بالانقسام والنقد، وتنتهى بفوضى الفردية والشك والانحرافات والتشوهات الفنية. وبينما تطلع سان سيمون إلى الاشتراكية كمحصلة جديدة للتناقض عاد شبنجلر (مثلما فعل تاليران)** إلى الماضى، وعَدَّ الأرستوقراطية العصر الذى اتسمت فيه الحياة والفكر بالتماسك والنظام وشكلت عملاً فنياً نابضاً بالحياة.

«يكمن الحد الفاصل فيما يتعلق بالوجود الغربى فى نحو

---

* شبنجلر مفكر ألمانى اهتم بفلسفة التاريخ، وألف كتاب «سقوط الغرب».

** شارل تاليران (١٧٥٤ـ١٨٣٨) سياسى ودبلوماسى فرنسى. كان وزيراً للخارجية فى عهود الملكية والثورة ونابليون دون أن يفقده ذلك احترام الجميع.

عام ١٨٠٠ ـ فعلى أحد جانبي ذلك الحد تشكلت الحياة في تمامها ووثوقها بذاتها، عن طريق التطور من الداخل، حتى صارت ارتقاءً عظيماً غير متقطع من الطفولة القوطية إلى جوته ونابليون. وعلى الجانب الآخر كان ثمة حياة خريفية، مصطنعة، لا جذور لها، في مدننا العظيمة، في ظل أشكال ابتدعها العقل... ومن لا يدرك أن هذه المحصلة إجبارية، لا تتأثر بالتعديل والتغيير، فيجب عليه أن يمتنع عن أية رغبة في فهم التاريخ»(٢٠)

وهكذا اتفق الجميع على نقطة واحدة، هي أن الحضارات تبدأ، وتزدهر، وتنهار، وتختفي ـ أو تظل ثابتة في مكانها مثل البرك الراكدة بعد أن تتركها مجاري الماء التي سبق أن أضفت عليها الحياة. فما أسباب التطور وما أسباب التحلل؟

لا يوجد طالب يأخذ مأخذ الجد فكرة القرن ١٧ التي تقول إن الدول نشأت عن «عقد اجتماعي» بين الأفراد أو بين الشعب وأحد الحكام. ومن المرجح أن معظم الدول (أي المجتمعات المنظمة سياسيا) تشكلت من خلال غزو جماعة لأخرى، وتأسيس قوة مستمرة فوق المغزوّ على يد الغازي. فكانت مراسيمه أول القوانين التي عرفوها، ثم خلقت هذه القوانين ـ مع إضافتها إلى أعراف الشعب ـ نظاماً اجتماعياً جديداً. ومن الواضح أن بعض دول أمريكا اللاتينية بدأت بهذه الطريقة. وحين نظم السادة عمل رعاياهم كي

يستغلوا نعمة من نعم الطبيعة (مثل نيل مصر أو أنهار آسيا) شكل الحس والتدبير الاقتصاديان أساساً آخر للحضارة. وقد يوقظ التوتر الخطير بين الحكام والمحكومين النشاط العقلى والعاطفى، ويعليه على التصدع اليومى عند القبائل البدائية. ويمكن أن تأتى إثارة التطور من أى تغيير فى البيئة المحيطة (٧١) كأن يقع غزو خارجى أو نقص مستمر فى المطر - وهى تحديات قد تواجه بالتحسينات العسكرية أو إنشاء قنوات الرى.

وإذا عدنا بالمشكلة إلى الماضى البعيد، وتساءلنا عما يحدد مواجهة التحدى من عدمها لكان الجواب أن هذا يتوقف على حضور أو غياب المبادرة، والأفراد المبدعين ذوى العقلية النيرة والإرادة القوية (وهذا يكاد أن يكون تعريف العبقرية) القادرين على الاستجابات الفعالة للمواقف المستجدة (وهذا يكاد أن يكون تعريف الذكاء) وإذا تساءلنا عما يصنع الفرد المبدع لأعادنا التاريخ إلى علم النفس وعلم الأحياء - إلى حيث تأثير البيئة ومراهنات الكروموزومات (الصبغيات) وأسرارها. وعلى أية حال فإن المواجهة الناجحة للتحدى (كما فعلت الولايات المتحدة أعوام ١٩١٧، ١٩٣٣، ١٩٤١) إذا لم تستنفد طاقة المنتصر (كما حدث فى انجلترا عام ١٩٤٥) ترفع درجة الصلابة والمنزلة فى الأمة، وتجعلها أقدر على مواجهة التحديات الأخرى.

إذا كانت هذه هى مصادر التطور فما أسباب التحلل؟

هل نفترض، مع شبنجلر وكثيرين غيره، أن كل حضارة كائن حىٌ، أوتى ـ بشكل طبعى وإن كان غامضاً ـ القدرة على التطور وحتمية الموت؟ من المغرى أن نفسر سلوك الجماعات من خلال القياس بعلم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) وعلم الطبيعة، وأن ننسب تدهور المجتمع إلى قيد ما كامن فى قدرته على الاستعارة والبقاء، أو عطب ما غير قابل للإصلاح فى قوته الداخلية. ولعلّ مثل هذه القياسات تقدم تفسيراً مؤقتاً، كما هى الحال حين نشبّه ترابط الأفراد بتجمع الخلايا، أو دورة المال من صاحب بنك إلى آخر بانقباض القلب وانبساطه. ولكن الجماعة لا تعنى أن كائناً حياً يضاف على نحو فيزيائى إلى عناصرها من الأفراد. فليس لها مخ خاص ولا معدة خاصة. ويجب أن تفكر أو تحس بعقول أفرادها أو أعصابهم. وحين تسقط جماعة أو حضارة لا يكون سقوطها من خلال أى قيد باطنى خفى على حياتها المشتركة، وإنما يكون من خلال فشل زعمائها السياسيين أو الفكريين فى مواجهة تحديات التغيير.

وقد تأتى التحديات من مصادر عديدة، وقد تكون تكراراً أو تجمعاً يصل إلى كثافة مدمرة. فقد يفشل المطر أو الواحة، ويتركان

الأرض جافة إلى حد العقم. وقد تستنزف التربة بالزراعة غير المناسبة، أو الاستخدام القصير النظر. وقد يقلل إحلال العمل العبودى محل العمل الحر الحوافز على الإنتاج، فيترك الأراضى بغير فلاحة والمدن بغير طعام. وقد يؤدى التغيير فى أدوات التجارة أو طرقها ـ مثل غزو المحيط أو الجو ـ إلى توقف المراكز القديمة للحضارة وانحطاطها، كما حدث لمدينة بيزا أو مدينة البندقية بعد عام ١٤٩٢ . وقد ترتفع الضرائب إلى حد إحباط استثمار رأس المال وحوافز الإنتاج. وقد تقضى زيادة المنافسة المغامرة على الأسواق والمواد الخام الأجنبية. وقد تمتص زيادة الواردات على الصادرات المعدن النفيس من الاحتياطيات المحلية. وقد يؤدى تركيز الثروة إلى تمزق الأمة فى حرب طبقية أو عنصرية. وقد يجبر تركيز السكان والفقر فى المدن الكبرى الحكومة على الاختيار بين إضعاف الاقتصاد بمنح الإعانات الحكومية للعاطلين وتحمل مخاطرة الشغب والثورة.

ولما كان عدم المساواة ينمو فى الاقتصاد المتوسع فقد يجد المجتمع نفسه مقسماً بين أقلية مثقفة وأغلبية من الرجال والنساء يعجزها سوء الحظ ـ بالطبيعة أو بالظروف ـ عن وراثة أو تنمية معايير للامتياز والذوق. وكلما نمت هذه الأغلبية صارت عبئاً

ثقافياً مُعَطِّلا للأقلية. فأساليبها فى الكلام، وملابسها، ووسائلها فى الترفيه، ومشاعرها، وأحكامها، وأفكارها، تنتشر إلى أعلى، وتكون عملية التبربر الداخلى للأغلبية الثمن الذى تدفعه الأقلية مقابل سيطرتها على فرص التعليم والاقتصاد.

وكلما انتشر التعليم فقدت الأفكار اللاهوتية الاعتقاد فيها، ولاقت امتثالاً مظهرياً، دون تأثير على السلوك أو الآمال. فالحياة والأفكار تصبح متزايدة العلمانية، متجاهلة التفسيرات والمخاوف الخارقة. ويفقد القانون الأخلاقى شذاه وقوته كلما انكشف أصله البشرى، وزالت المراقبة والجزاءات المقدسة. ففى اليونان القديمة قضى الفلاسفة على العقيدة القديمة عند الطبقات المتعلمة. وفى كثير من أمم أوروبا الحديثة حقق الفلاسفة نتائج مماثلة. فقد صار بروتاجوراس فولتير، وديوجين روسو، وديموقريطس هوبز، وأفلاطون كانط، وثراسيماخوس نيتشه، وأرسطو سبنسر، وإبيقوروس ديدرو. وفى العصور القديمة والحديثة على السواء حلَّ الفكر التحليلى محل الدين الذى كان يدعم القانون الأخلاقى. وظهرت أديان جديدة، ولكنها كانت منفصلة عن الطبقات الحاكمة، ولم تقم بأية خدمة للدولة. وجاء عصر من الشك الضجر، والإبيقورية، بعد انتصار العقلانية على الأساطير فى القرن الأخير قبل المسيحية، ثم تلاه انتصار مماثل فى القرن الأول للمسيحية.

ومع الاشتباك فى فترة الاسترخاء التى تقع بين قانون أخلاقى وآخر تال يستسلم جيل متحرر للترف، والفساد، والفوضى القلقة فى الأسرة والأخلاق، ولايستميت فى التعلق بالقيود والطرق القديمة سوى نفر قليل. ولم يعد كثيرون يشعرون بأن «من الحَسَن والشرف أن يموت الإنسان من أجل بلده» وقد يؤدى فشل الزعامة بالدولة إلى الضعف من أثر النزاع الداخلى. وفى آخر هذه العملية قد تودى الهزيمة الحاسمة فى الحرب إلى ضربة قاضية، أو قد يتحد غزو بربرى من الخارج مع بربرية متصاعدة من الداخل فيؤدى اتحادهما إلى نهاية الحضارة.

هل هذه صورة مقبضة؟

ليس الأمر هكذا تماماً. فالحياة لا تعرف المطالبة الموروثة بالخلود، سواء فى الأفراد أو فى الدول. والموت مسألة طبيعية، وإذا جاء فى موعده يصبح مغفورا ومفيداً، ولا يشعر العقل الناضج بالإساءة من مجيئه. ولكن هل الحضارات تموت؟ ومرة أخرى نقول: ليس الأمر هكذا تماماً. فالحضارة اليونانية ليست ميتة فى الحقيقة. ولم يذهب سوى إطارها. أما موطنها فقد تغير وانتشر. وهى باقية فى ذاكرة الجنس البشرى، بوفرة لا يستطيع عمر واحد أن يستوعبها بأسرها،

مهما كان اكتماله وطوله. وهوميروس يتمتع اليوم بقراء أكثر مما كان له في عصره ووطنه. والشعراء والفلاسفة الإغريق موجودون بكل مكتبة وكلية. وأفلاطون في هذه اللحظة يقوم بدراسته مائة ألف من مكتشفي «البهجة العزيزة» في الفلسفة التي تغمر الحياة بالفكر الفاهم. وهذا البقاء المختار للعقول المبدعة هو أكثر أنواع الخلود حقيقة وخيراً.

إن الأمم تموت. والأراضي القديمة تزداد جدباً، أو تعاني من أي تغيير آخر. والإنسان المرن يلتقط أدواته وفنونه، ثم يمضي، بصحبة ذكرياته. وإذا عمّق التعليم هذه الذكريات ووسّعها فإن الحضارة تهاجر مع صاحبها، وتبني له وطنا آخر في مكان ما. وعلى الأرض الجديدة لا يحتاج إلى البدء من جديد كلية، ولا إلى شق طريقه بدون عون ودي. فوسائل الاتصال والنقل تربطه ببلده الأم كما لو كان في مشيمة مغذية. وقد استوردت روما الحضارة اليونانية ونقلتها إلى أوروبا الغربية. واستفادت أمريكا من الحضارة الأوربية، وها هي تعد العدة لتداولها بتقنية نشر لم يسبق لها نظير.

إن الحضارات هي ذُرِّيات الروح العرقية. وكما تتغلب الحياة على الموت بالإنجاب تُسَلِّم الثقافة المُسِنَّة تَرِكَتَها لورثتها

عبر السنين والبحار. بل إننا ونحن نكتب هذه السطور نجد التجارة، والطباعة، والأسلاك، والأمواج، وكواكب الجو غير المرئية، تربط بين الأمم والحضارات، وتحفظ للجميع كل ما أسهمت به إحداها في تراث البشرية.

١٢ـ هل التقدم حقيقى ؟[٧٢]

مقابل هذه البانوراما من الأمم والأخلاق والنهضات والنكسات الدينية تجد فكرة التقدم نفسها فى وضع مشكوك فيه. فهل يعنى هذا مجرد التباهى الفارغ والتقليدى عند كل جيل «حديث» ؟ إذا كنا سلمنا بأنه لا يوجد أى تغيير أساسى فى طبيعة الإنسان خلال عصور التاريخ فسوف يكون من الواجب أن نحذف جميع مظاهر التقدم التكنولوجى ونعدّها مجرد وسائل لتحقيق غايات قديمة ـ مثل اقتناء السلع، ومطاردة أحد الجنسين للآخر (أو لنفسه) والتغلب على المنافسة، ومكافحة الحروب. ومن بين المكتشفات المثبطة للهمم فى قرننا هذا ذلك القول بأن العلم محايد : سَيَقْتُل من أجلنا مثلما سيشفِى، وسيهدم من أجلنا باستعداد أكبر مما يستطيع أن يبنى. فكم سيبدو غير ملائم الآن شعار فرنسيس بيكون المزهو القائل إن «المعرفة قوة»! ونحن نشعر أحياناً بأن العصور الوسطى وعصر النهضة، التى ألحت على الأساطير والفن أكثر مما ألحت

على العلم والقوة، ربما كانت أكثر حكمة منا، نحن الذين نضخم وسائلنا مرة بعد مرة، بدون تحسين أغراضنا.

لقد تضمن تقدمنا فى العلم والتقنية مسْحة من الشر مع الخير. ولعل ألوان الراحة والفائدة التى عادت علينا أوْهنت قدرتنا البدنية على الاحتمال، وأضعفت طبعنا الأخلاقى. فنحن طورنا وسائل انتقالنا تطويراً هائلاً، ولكن بعضنا يستخدمها فى تسهيل الجرائم وقتل إخواننا أو قتلنا. وضاعفنا سرعتنا مثنى وثلاث ومائة مرة، ولكننا نحطم أعصابنا أثناء ذلك، وكأننا قردة ترتدى السراويل سواء تحركنا بسرعة ألفى ميل فى الساعة أو استخدمنا سيقاننا فى الحركة. ونحن نصفق لأدوية الطب الحديث وجراحاته إذا لم تؤد إلى آثار جانبية أسوأ من المرض، ونعجب باجتهاد أطبائنا فى سباقهم المجنون مع مرونة الميكروبات وقدرة المرض على الابتكار، ونشكر لعلم الطب تلك السنين الإضافية التى يمنحنا إياها إذا لم تكن إطالة مرهقة للمرض والعجز والغم. وقد ضاعفنا مائة مرة قدرتنا على العلم بحوادث اليوم والكوكب ونقلها إلى الغير، ولكننا أحياناً نحسد أجدادنا الذين لم يكن يعكر سلامهم تعكيراً خفيفاً سوى أخبار قريتهم. وقمنا مشكورين بتحسين ظروف الحياة للعمال المهرة والطبقة الوسطى، ولكننا تركنا مدننا تتقيح بالأحياء المظلمة التى تتكدس فيها الأقليات والأحياء الفقيرة الموحلة القذرة.

إننا نطرب لتحررنا من اللاهوت، ولكن هل أنشأنا أخلاقاً طبيعية ـ قانوناً أخلاقياً منفصلاً عن الدين ـ تكون من القوة بحيث تصون غرائزنا في التملك والمشاكسة والجنس عن الانحطاط بحضارتنا إلى مستنقع من الطمع والجريمة والزنا؟ هل نحن كبرنا حقاً بحيث استغنينا عن التعصب، أم أننا لم نزد على تحويله من الأعمال العدائية الدينية إلى نظائرها الوطنية أو الأيديولوجية أو العرقية؟ هل تحسنت عاداتنا وتقاليدنا، أم ساءت، عن ذى قبل؟ لقد قال أحد الرحالة في القرن ١٩ إن «العادات والتقاليد تزداد سوءاً بصورة منتظمة كلما اتجهت من الشرق إلى الغرب. فهي سيئة في آسيا، وغير حسنة جداً في أوربا، وسيئة تماماً في الولايات الغربية بأمريكا»(٧٣). وها هو الشرق اليوم يقلد الغرب. فهل أتاحت قوانيننا للمجرم حماية أكثر من اللازم ضد المجتمع والدولة؟ هل منحنا أنفسنا حرية أكبر مما يستطيع ذكاؤنا هضمه؟ أم نحن ندنو من فوضى أخلاقية واجتماعية كبيرة تجعل الآباء المفزوعين يهرعون مرة أخرى نحو الكنيسة الأم، ويرجونها أن تهذب أولادهم، مهما كان الثمن الذى تتحمله الحرية العقلية؟ هل كان كل التقدم الذى أحرزته الفلسفة منذ ديكارت خطأ من خلال عجزها عن الاعتراف بدور الأسطورة في تعزية الإنسان والسيطرة عليه؟ «لأن في كثرة الحكمة كثرة الغم. والذى يزيد علماً يزيد حزناً»(٧٤).

* فقرة من الكتاب المقدس: سفر الجامعة، ١ ، ١٨.

هل حدث أى تقدم على الإطلاق فى الفلسفة منذ كونفوشيوس؟ أو في الأدب منذ إسخيلوس؟ هل نحن على يقين من أن موسيقانا، بأشكالها المعقدة وفرقها القوية، أعمق من موسيقى بالسترينا*، أو أكثر موسيقية وإيحاء من الألحان ذات الصوت الواحد التى درج العرب فى العصور الوسطى على غنائها بمصاحبة المداعبة المرتجلة لأوتار آلاتهم البسيطة؟ (قال إدوارد لين** عن الموسيقيين فى القاهرة «سحرتنى أغانيهم... أكثر من أى موسيقى أخرى استمتعت بها»(٧٥)) كيف يقارن فن العمارة المعاصر عندنا ــ فى جرأتها وأصالتها وإثارتها للإعجاب ــ بمعابد مصر القديمة أو اليونان، أو يقارن فن النحت عندنا بتماثيل خفرع وهرمس، أو تقارن الحلى المعمارية نصف البارزة عندنا بنظائرها فى برسبوليس*** أو البارثنون، أو تقارن لوحاتنا الزيتية بلوحات الأخوين فان إيك Van Eyck أو هولباين**** Holbien؟ إذا كان «إحلال النظام محل الفوضى هو

* جيوفانى بالسترينا (١٥٢٥ــ٩٤) موسيقى إيطالى اشتهر بموسيقاه الدينية والكنسية.

** إدوارد لين (١٨٠١ــ٧٦) مستشرق إنجليزى عاش فى مصر سنوات وألف عن عاداتها.

*** برسبوليس مدينة فارسية قديمة دمرها الإسكندر الأكبر. بقيت منها أطلال مبان ضخمة.

**** جان فان إيك (١٣٩٠ــ١٤٤١) رسام بلجيكى برع فى استخدام اللون وكان أخوه هيوبرت يعاونه. أما هانز هولباين (١٤٩٧ــ١٥٤٣) فرسام ألمانى هاجر إلى انجلترا واشتهر بتصوير الوجوه.

جوهر الفن والحضارة»[٧٦] فهل الفن المعاصر فى أمريكا وأوروبا الغربية إحلال للنظام محل الفوضى، ورمز نابض لانتكاس حضارتنا وسقوطها فى التحلل المضطرب العديم البنية؟

والتاريخ من الغنى غير المبالى بحيث أن أية قضية تمثل أية نتيجة من نتائجه من الممكن إثباتها بنخبة من الأمثلة. ولكننا إذا اخترنا أدلتنا بتحيز صارخ فقد نستنبط أفكاراً أكثر عزاء. ومع ذلك، ربما كان من الواجب أولاً أن نحدد ما يعنيه التقدم لنا. فإذا كان يعنى ازدياد السعادة فقضيته واضحة تقريباً من أول نظرة. وقدرتنا على التبديد لا نهاية لها، وسوف نجد دائماً عذراً لتعاستنا العظيمة مهما كثرت المصاعب التى نتغلب عليها، والمثل التى ندركها. وثمة لذة مستخفية تنحو نحو رفض البشر أو الكون وعدّهما غير جديرين برضانا. ويبدو من السخف أن نعرف التقدم بصورة تجعل الطفل العادى نتاجاً للحياة أعلى وأكثر تقدماً من الإنسان البالغ أو الحكيم فلاشك أن الطفل أسعد الثلاثة. فهل من الممكن تقديم تعريف أكثر موضوعية؟ سوف نعرف التقدم هنا بأنه ازدياد تحكم الحياة فى البيئة. وهذا مقياس يصدق على أدنى الكائنات الحية كما يصدق على الإنسان.

يجب علينا ألا نطلب من التقدم أن يكون مستمرا أو عالمياً. فمن

الواضح ان قمة فترات من التردى والتراجع مثلما توجد فترات من الفشل والإرهاق والراحة فى حياة الفرد النامى. وإذا كانت المرحلة الراهنة تمثل تقدماً فى السيطرة على البيئة فالتقدم عندئذ حقيقى. وقد نزعم أن جميع فترات التاريخ تقريباً شهدت تقدم بعض الأمم وسقوط البعض الآخر، مثلما هى الحال اليوم فى روسيا التى تتقدم وانجلترا التى تتأخر. وقد تتقدم الأمة الواحدة فى حقل معين من حقول النشاط الإنسانى وتتردى فى حقل آخر، كما هى الحال اليوم فى أمريكا التى تتقدم فى التكنولوجيا وتتراجع فى الفنون التخطيطية* Graphic Arts . وإذا وجدنا أن نمط العبقرية السائد فى البلدان الفتية، مثل أمريكا واستراليا يميل إلى الأنواع العملية والابتكارية والعلمية والإدارية أكثر مما يميل إلى رسام الصور أو القصائد، ونحات التماثيل أو الكلمات، فيجب علينا إدراك أن كل زمان ومكان يفضلان أنواعاً معينة من القدرات على غيرها، ويستحدثانها، فى سعيهما وراء السيطرة على البيئة. ويجب ألا نقارن إنتاج أرض واحدة وعصر واحد بخير غربلة للماضى المجموع بأسره. وتتمثل مشكلتنا فى مدى زيادة الانسان العادى لقدرته على التحكم فى ظروف حياته.

* الفنون التخطيطية تشمل الحفر، والرسم، والكتابة، والطباعة، والزخرفة، والتصوير.

وإذا اتخذنا رؤية بعيدة المدى، وقارنا وجودنا الحديث فى واقعه غير المستقر والفوضوى والإجرامى بجهل الشعوب البدائية وخرافاتها وعنفها وأمراضها، فلن نخرج من المقارنة يائسين تماماً. فلعل أسفل مستوى فى الدول المتحضرة ما زال غير بعيد عن مستوى البرابرة، ولكننا نجد فوق هذا المستوى ألوفاً وملايين بلغت مستويات عقلية وأخلاقية يندر وجودها بين البدائيين. ونحن نتخذ أحياناً، فى ظل الضغوط المعقدة لحياة المدينة، ملاذاً خيالياً فى البساطة المفترضة فى الأساليب البدائية. ولكننا فى أوقاتنا الأقل شاعرية نعرف أن هذا رد فعل هروبى من واجباتنا الفعلية، وأن عملية تقديس الهمج ـ مثلها مثل كثير من أمزجة الشباب الأخرى ـ ما هى إلا تعبير ضيق الصدر عن سوء التكيف المراهق، والقدرة الواعية التى لم تنضج وتوضع فى مكانها الملائم بعد. ولنا أن نسعد بذلك «الهمجى الودود الفياض» ولكن المشكلة هى مَشْرَطُه وحشراته وقذارته. فدراسة القبائل البدائية الموجودة تكشف عن ارتفاع معدل وفيات الأطفال فيها، وقصر أعمار أفرادها، وقلة قدرتها على الاحتمال وسرعتها، وقابليتها الكبيرة للمرض(٧٧). وإذا كانت إطالة العمر تشير إلى سيطرة أفضل على البيئة، فإن جداول الوفيات تعلن عن تقدم الإنسان، لأن طول العمر بين البيض الأمريكيين والأوربيين تضاعف ثلاث مرات خلال القرون الثلاثة الأخيرة. ومنذ فترة ناقش مؤتمر

للملحادين الخطر الذى يهدد صنعتهم من جراء تأخير الناس لمواعيدهم مع الموت[٧٨]. ولكن إذا تعس اللحادون صار التقدم حقيقياً.

ليس من الواضح تماما فى الجدل بين القدامى والمحدثين أن القدامى هم الفائزون بالجائزة. فهل نعد من قبيل التوافه أن المجاعة قضى عليها فى الدول الحديثة، وأن بلداً واحدا يستطيع اليوم أن ينتج من الطعام ما يزيد على حاجته وأن يرسل أيضاً مئات الملايين من بوشلات القمح إلى الأمم المحتاجة؟ هل نحن مستعدون لأن نغرق العلم الذى قلل كثيراً من الخرافة والجاهلية والتعصب الدينى، أو نغرق التكنولوجيا التى نشرت الطعام وملكية البيوت، والراحة، والتعليم، والرفاهية، على نحو منقطع النظير؟ هل نحن حقاً نفضل الساحة العامة فى أثينا واجتماع المواطنين فى روما على البرلمان البريطانى أو الكونجرس الأمريكى، أو هل نرضى بامتياز ضيق مثلما كان لأتيكا *، أو باختيار الحكام على يد حارس إمبراطورى؟ أم ترانا نفضل لو عشنا فى ظل قوانين الجمهورية الأثينية أو الإمبراطورية الرومانية على أن نعيش فى ظل الدساتير التى تتيح لنا المثول أمام التحقيق بأمر قضائى، والمحاكمة بنظام المحلفين، والحرية الدينية

* أتيكا هو الاسم اليونانى القديم للمنطقة الجبلية الشرقية فى وسط اليونان التى تضم أثينا. وبرغم ضيق مساحة هذه المنطقة فقد تفوقت على غيرها وامتازت.

والفكرية، وتحرير المرأة؟ هل أخلاقنا، برغم انحلالها، أسوأ من أخلاق ألقبيادس الذى كان شاذاً جنسياً، أو هل قلد أى رئيس أمريكي بركليس الذى كان يعيش مع مومس مثقفة؟ هل نخجل من جامعاتنا العظيمة، ودور نشرنا الكثيرة، ومكتباتنا العامة الوافرة؟ لقد شهدت أثينا مؤلفين مسرحيين كباراً، ولكن هل كان أحدهم أكبر من شكسبير وهل كان أريستوفانيس* فى عمق موليير وإنسانيته؟ هل كانت خطب ديموستينيس وإيزوقراطيس وإيسقينيس أعظم من خطب تشاتام وبيرك وشريدان**؟ هل نضع جيبون دون هيرودوتوس أو ثيوسيديدس؟ هل فى القصص النثرية القديمة شيء يضارع الرواية الحديثة فى المجال والعمق؟ ربما نسلم للقدماء بالتفوق فى الفن، بالرغم من أن بعضنا قد يظل يفضل نوتردام دى بارى*** على البارثنون. وإذا أمكن لآباء الولايات المتحدة

* أريستوفانيس (٤٥٠ـ٣٨٥ ق.م) أكبر مؤلفى الكوميديا المسرحية الإغريقية، وموليير (١٦٢٢ـ٧٣) أكبر مؤلفى الكوميديا الحديثة فى فرنسا، وربما فى العالم.

** ديموستينيس وزميلاه أعظم خطباء اليونان القديمة. أما تشاتام وزميلاه فيعدون أعظم خطباء إنجلترا فى القرن ١٨ وما بعده.

*** نوتردام دى بارى هى الكاتدرائية المشهورة فى باريس التى انتهى بناؤها عام ١٢٥٠، والبارثنون هو المعبد الأثينى المعروف، أقامه حاكمها بركليس على هضبة الأكروبوليس فى القرن ٥ ق.م تكريما لإلهة المدينة واحتفالاً بالنصر على الفرس.

المؤسسين* أن يعودوا إلى أمريكا، أو يعود فوكس وبنتام إلى انجلترا، أو فولتير وديدرو** إلى فرنسا، فهل تراهم لا يوبخوننا على جحودنا إزاء عمانا عن رؤية حظنا الحسن فى العيش اليوم وليس بالأمس ـ حتى فى ظل حكم بركليس أو أغسطس؟

يجب ألا يزعجنا كثيراً احتمال موت حضارتنا مثلما ماتت أية حضارة أخرى، أو كما سأل فردريك (الأكبر) قواته التى تقهقرت عند مدينة كولن: «هل تراكم تحيون إلى الأبد؟»(٧٩) وربما كان من المرغوب فيه أن تتخذ الحياة أشكالاً جديدة، وأن تكون للحضارات والمراكز الجديدة دورتها. وقد يؤدى الجهد المبذول فى الوقت نفسه لمواجهة تحدى الشرق الصاعد إلى إعادة إنعاش الغرب.

وسبق أن ذكرنا أن الحضارة العظيمة لا تموت كلية ـ non omnis moritur . فقد بقيت بعض المنجزات العظيمة بعد كل تقلبات الدول الصاعدة والساقطة : صنع النار والنور، والعجلات وغيرها من الأدوات الأساسية، واللغة، والكتابة، والفن، والأغنية،

---

* الآباء المؤسسون هم الزعماء الذين وقعوا على الدستور. ومن أبرزهم جورج واشنطن وجيفرسون وفرانكلين.

** جيمس فوكس (١٧٤٩ـ١٨٠٦) سياسى إنجليزى أيد استقلال أمريكا وإلغاء الرق. وجيريمى بنتام (١٧٤٨ـ١٨٣٢) مفكر سياسى إنجليزى أيد نظام المنفعة وأثر فى ج. س. ميل.

والزراعة، والأسرة، والرعاية الأبوية، والتنظيم الاجتماعى، والأخلاق، والإحسان، واستخدام التعليم فى انتقال تراث الأسرة والعِرْق. وهذه هى عناصر الحضارة، تم الحفاظ عليها بصورة متماسكة خلال رحلتها الخطرة من حضارة إلى أخرى تالية. وهى تشكل النسيج الرابط للتاريخ الإنسانى.

إذا كان التعليم يعنى انتقال الحضارة وإذاعتها فنحن نتقدم بغير شك. والحضارة لا تورث، وإنما يجب تعلمها واكتسابها من جديد على يد كل جيل. وإذا توقف الانتقال قرناً من الزمان ماتت الحضارة وصرنا همجاً مرة أخرى.

ومن ثمة تكون أرفع منجزاتنا المعاصرة هى إنفاقنا غير المسبوق للثروة والجهد فى سبيل تأمين التعليم العالى للجميع. وقد كانت الكليات من الكماليات فيما مضى، يتم تصميمها من أجل النصف المذكر فى الطبقة المرفهة. أما اليوم فالجامعات من الكثرة بحيث يمكن لأى عابر سبيل أن يحصل على الدكتوراه. ولعلنا لم نتفوق على صفوة العبقريات فى العصور القديمة، ولكننا رفعنا مستوى المعرفة ومتوسطها بما يفوق أى عصر من عصور التاريخ.

ولن يشكو سوى الطفل من أن معلمينا لم يمحوا بعدُ أخطاء وخرافات عشرة آلاف عام مضت. فها هى التجربة العظيمة بدأت،

ولكن قد يهزمها معدل المواليد المرتفع الذى يحمله الجهل المعارض أو الخاضع للتلقين. ومع ذلك، ماذا ستكون حال الإثمار الكامل للتعليم إذا ألحق كل طفل بالمدرسة حتى سن العشرين على الأقل، وأتيحت له الفرصة الحرة لدخول الجامعات والمكتبات والمتاحف التى تضم الكنوز الفكرية والفنية للجنس البشرى وتبذلها؟ علينا ألا ننظر إلى التعليم كعملية تكديس مؤلم للحقائق والتواريخ وعهود الحكم، ولا كمجرد إعداد ضرورى للفرد لكسب قوته فى الدنيا، وإنما كانتقال لتراثنا العقلى والأخلاقى والتقنى والجمالى بكل ما فى استطاعتنا إلى أكثر عدد ممكن، من أجل توسيع فهم الإنسان للحياة، والسيطرة عليها، وتزيينها، والاستمتاع بها.

لقد أصبح التراث الذى نستطيع أن ننقله اليوم بصورة أكمل أغنى مما كان عليه من قبل. بل هو أغنى من تراث بركليس لأنه يشمل كل ما تلاه من الازدهار الإغريقى، وأغنى من تراث ليوناردو* لأنه يضمه، ويضم عصر النهضة الإيطالية، وأغنى من تراث فولتير لأنه يضم كل عصر التنوير الفرنسى وانتشاره فى العالم. وإذا كان التقدم حقيقياً برغم أنيننا، فليس ذلك لأننا ولدنا أصح أو

---

* ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ـ١٥١٩) أكبر فنانى عصر النهضة فى إيطاليا. كان أيضاً مخترعاً ومفكراً.

أفضل أو أحكم من الأطفال الذين ولدوا فى الماضى، وإنما لأننا ولدنا لتراث أغنى، وعلى مستوى أعلى فى القاعدة التى ينتصب فوقها تراكم المعرفة والفن، وتحمل وجودنا وتسنده. وكلما علا التراث علا الإنسان معه عند تلقيه له.

والتاريخ، فوق أى شيء آخر، هو إبداع ذلك التراث وتسجيله. والتقدم هو وفرته المتزايدة، وحفظه، وإذاعته، واستعماله. أما أولئك الذين يدرسون التاريخ بيننا، لا بصفته مجرد تذكرة للتحذير من حماقات الإنسان وجرائمه، وإنما بصفته أيضاً تذكارا مشجعاً للنفوس المبدعة، فإن الماضى يكف فى نظرهم عن أن يكون باعثاً على الغم والخوف. بل يصبح مدينة سماوية، وموطناً فسيحاً للعقل، حيث يواصل ألوف القديسين، والسياسيين، والمخترعين، والعلماء، والشعراء، والفنانين، والموسيقيين، والعشاق، والفلاسفة، العيش والكلام والتعليم والنحت والغناء. وسوف لا يحزن المؤرخ لأنه لا يستطيع أن يجد للوجود الإنسانى معنى إلا ما يضفيه عليه الإنسان. فليكن من دواعى فخرنا أننا ـ أنفسنا ـ نستطيع أن نضفى على حياتنا معنى، وأن نكسبها أحياناً مغزى يسمو على الموت. فالإنسان إذا حالفه الحظ سوف يقوم قبل موته بجمع أقصى ما يستطيع من تراثه المتحضر ونقله إلى أولاده. وسوف يشعر بالامتنان حتى آخر

رمق فيه نحو هذه التركة التى لا تنضب، وهو يدرك أنها أُمُّنا التى تمدنا بالغذاء وحياتنا التى تدوم.

هوامش

CHAPTER I

1. Sédillot, René, *L'Histoire n'a pas de sens.*
2. Durant, *Our Oriental Heritage*, 12.
3. *Age of Faith*, 979.
4. Sédillot, 167.
5. *The Reformation*, viii.
6. *The Age of Reason Begins*, 267.

CHAPTER II

7. Pascal, *Pensées*, No. 347.
8. Plato, *Phaedo*, No. 109.

CHAPTER III

9. *Caesar and Christ*, 193, 223, 666.

CHAPTER IV

10. Gobineau, *Inequality of Human Races*, xv, 210.
11. *Ibid.*, 211.
12. *Ibid.*, 36–7.
13. In Todd, A. J., *Theories of Social Progress*, 276.
14. See *Our Oriental Heritage*, 934–38.

CHAPTER VI

15. *Caesar and Christ*, 211.
16. *The Renaissance*, 576.
17. *Our Oriental Heritage*, 275.
18. *The Reformation*, 761.
19. *The Age of Reason Begins*, 394.
20. *The Age of Voltaire*, 64.
21. *Our Oriental Heritage*, 265.
22. *The Reformation*, 763.
23. *The Age of Voltaire*, 487.
24. Gibbon, Edward, *Decline and Fall of the Roman Empire*, I, 314.

CHAPTER VII

25. *Caesar and Christ*, 296–97.
26. *The Age of Faith*, 525–26.
27. Plato, *Laws*, No. 948.
28. *Our Oriental Heritage*, 205–13.
29. *Ibid.*, 416–19, 434, 504.
30. Renan, *The Apostles*, xxxiii.
31. Lemaître, *Jean Jacques Rousseau*, 9.
32. Durant, *The Mansions of Philosophy*, 568.

CHAPTER VIII

33. *The Reformation*, 752.
34. *The Age of Louis XIV*, 720.
35. Plutarch, *Life of Solon.*
36. *The Life of Greece*, 112–18.
37. Plutarch, *Tiberius Gracchus.*
38. *Caesar and Christ*, 111–22, 142–44, 180–208.

CHAPTER IX

39. *Encyclopaedia Britannica*, II, 962b.
40. *Our Oriental Heritage*, 231. We have revised the date there given for Hammurabi.
41. *The Life of Greece*, 587–92.
42. Paul-Louis, *Ancient Rome at Work*, 283–85.
43. *Caesar and Christ*, 641f.
44. Szuma Ch'ien in Granet, Marcel, *Chinese Civilization*, 113.
45. *Ibid.*
46. *Our Oriental Heritage*, 700f. The dates there given are being revised for a new edition.
47. Gowen and Hall, *Outline History of China*, 142.
48. In Carter, Thomas, *The Invention of Printing in China and Its Spread Westward*, 183.
49. *Our Oriental Heritage*, 724–26.
50. *The Age of Reason Begins*, 249–51.
51. Kautsky, Karl, *Communism in Central Europe in the Time of the Reformation*, 121, 130.
52. *The Reformation*, 383, 391, 398–401.

CHAPTER X

53. Renan, *Marc Aurèle*, 479.
54. Gibbon, *Decline and Fall*, I, 31.
55. Gomme, A. W., *The Population of Athens in the Fifth and Fourth Centuries B.C.*, 21, 26, 47; *Life of Greece*, 254.
56. Thucydides, *Peloponnesian War*, iii 10; *Life of Greece*, 284.
57. Plato, *The Republic*, Nos. 560–64.
58. *Ibid.*, No. 422.
59. Aristotle, *Politics*, No. 1310.
60. Isocrates, *Works*, "Archidamus," No. 67.
61. This paragraph has been copied from *The Life of Greece*, 464–66.
62. *Caesar and Christ*, 128–30.
63. *Ibid.*

CHAPTER XI

64. *Our Oriental Heritage*, 446.
65. *Caesar and Christ*, 218.
66. In Seebohm, *The Age of Johnson*, xiii.

CHAPTER XII

67. *Our Oriental Heritage*, 1.
68. See *The Mansions of Philosophy*, 355; Toynbee, *A Study of History*, IV, 27f.
69. Quoted from Bazard's *Exposition de la doctrine Saint-Simonienne*, in Toynbee, I, 199.
70. Spengler, *Decline of the West*, I, 353, 90, 38.
71. This is the initial theory of Toynbee's *Study of History*, I, 271f.

CHAPTER XIII

72. This section appropriates some passages from an essay on the same subject in *The Mansions of Philosophy*.
73. Anon. in Bagehot, *Physics and Politics*, 110.
74. Ecclesiastes, i, 18.

75. Lane, Edward, *Manners and Customs of the Modern Egyptians*, II, 66.
76. *Our Oriental Heritage*, 237.
77. Todd, *Theories of Social Progress*, 135.
78. Siegfried, André, *America Comes of Age*, 176.
79. *Rousseau and Revolution*, Ch. II, Sec. iii, William Coxe, *History of the House of Austria*, III, 379.

كتب ورد ذكرها فى الهوامش

ARISTOTLE, *Politics*. Everyman's Library.
BAGEHOT, WALTER, *Physics and Politics*. Boston, 1956.
CARTER, THOMAS F., *The Invention of Printing in China and Its Spread Westward*. New York, 1925.
COXE, WILLIAM, *History of the House of Austria*, 3v. London, 1847.
DURANT, WILL, *The Mansions of Philosophy*. New York, 1929.
DURANT, WILL and ARIEL, *The Story of Civilization*:

I. *Our Oriental Heritage*. New York, 1935.
II. *The Life of Greece*. New York, 1939.
III. *Caesar and Christ*. New York, 1944.
IV. *The Age of Faith*. New York, 1950.
V. *The Renaissance*. New York, 1953.
VI. *The Reformation*. New York, 1957.
VII. *The Age of Reason Begins*. New York, 1961.
VIII. *The Age of Louis XIV*. New York, 1963.
IX. *The Age of Voltaire*. New York, 1965.
X. *Rousseau and Revolution*. New York, 1967.

Encyclopaedia Britannica, 1966 edition.
GIBBON, EDWARD, *The Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. Milman, 6v. New York: Nottingham Society, n.d.
GOBINEAU, J. A. DE, *The Inequality of Human Races*. London, 1915.
GOMME, A. W., *The Population of Athens in the Fifth and Fourth Centuries B.C.* Oxford, 1933.
GOWEN, H. H., AND HALL, JOSEF, *Outline History of China*. New York, 1927.
GRANET, MARCEL, *Chinese Civilization*. New York, 1930.
ISOCRATES, *Works*. Loeb Library.
KAUTSKY, KARL, *Communism in Central Europe in the Time of the Reformation*. London, 1897.
LANE, EDWARD, *Manners and Customs of the Modern Egyptians*, 2v. London, 1846.
LEMAÎTRE, JULES, *Jean Jacques Rousseau*. New York, 1907.
PASCAL, BLAISE, *Pensées*. Everyman's Library.
PAUL-LOUIS, *Ancient Rome at Work*. London, 1927.
PLATO, *Dialogues*, tr. Jowett, 4v. New York: Jefferson Press, n.d.
PLUTARCH, *Lives*, 3v. Everyman's Library.
RENAN, ERNEST, *The Apostles*. London: Methuen, n.d.
———, *Marc Aurèle*. Paris: Calman-Lévy, n.d.

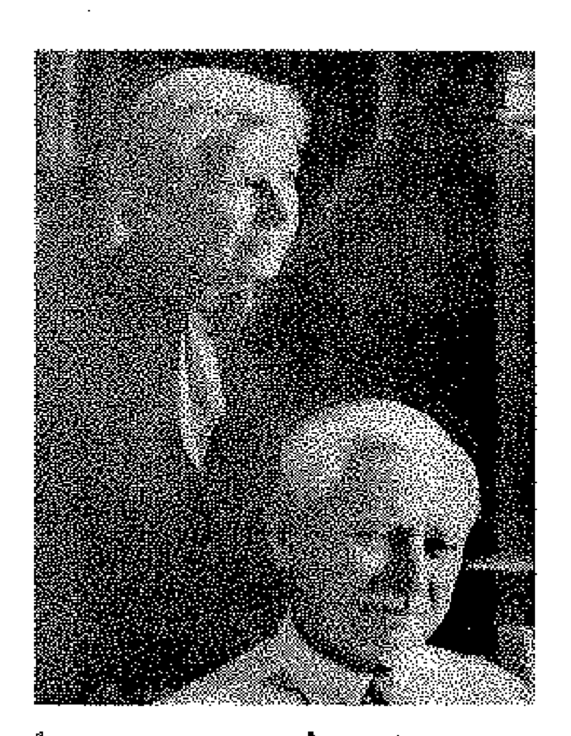
SÉDILLOT, RENÉ, *L'Histoire n'a pas de sens*. Paris, 1965.
SEEBOHM, FREDERICK, *The Age of Johnson*. London, 1899.
SIEGFRIED, ANDRÉ, *America Comes of Age*. New York, 1927.
SPENGLER, OSWALD, *The Decline of the West*, 2v. New York, 1927.
THUCYDIDES, *History of the Peloponnesian War*. Everyman's Library.
TODD, A. J., *Theories of Social Progress*. New York, 1934.
TOYNBEE, ARNOLD J., *A Study of History*, 10v. London, 1934f.

■ **دار سعاد الصباح**

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهي نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الإبداع المختلفة .

دروس التاريخ



في الفلسفة نحاول أن نرى الجزء في ضوء الكل ، ولكننا في « فلسفة التاريخ » نحاول أن نرى اللحظة الحاضرة في ضوء الماضي . ونحن نعرف أن هذا في كلتا الحالتين دعوة إلى الكمال . فوجهة النظر الكلية خداع بصري . ونحن لا نعرف كل تاريخ الإنسان ، ومن المرجح وجود الكثير من الحضارات قبل الحضارة السومرية أو الحضارة المصرية . فليس ما خرجنا به من الحفر والتنقيب سوى بداية ! ويجب أن نعمل مسلحين بشيء من المعرفة ، وأن نقنع مؤقتاً بالاحتمالات . ففي التاريخ ، كما في العلم والسياسة ، تسود النسبية . ويجب أن تخضع جميع الصيغ للشك . « فالتاريخ يسخر من جميع المحاولات التي تسعى لإجبار تدفقه على الدخول في أطر نظرية أو أخاديد منطقية . وهو يطيح بتعميماتنا ويدمرها ، ويكسر جميع القواعد . وما هو إلا كيان غريب غامض معقد » . ولعلنا في هذه الحدود نستطيع أن نتعلم على نحو كاف من التاريخ كيف نأخذ الواقع بروية وصبر ، وكيف يحترم كل منا أوهام الآخر .

